المشروع الوطني

الكتاب الثالث عشر

ممارسة الوطنية

شراكة إنسانية .. لبناء الوطن

تأليف

سماحة المرجع الديني آية الله الفقيه

السيد حسين السيد إسماعيل الصدر دام ظله

المشروع الوطني

الكتاب الثالث عشر

مُمَارَسَةُ الوَطنِيَّةِ

شَرَاكَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ.. لِبِنَاءِ الْوَطَنِ

تأليف

سماحة آية الله الفَقيْه

السَّيِّد حُسين السَّيِّد إسْماعِيل الصَّدْر

-دام ظله-

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين
والصلاةُ والسلامُ على نبينا محمد
وعلى آله الطيبين الطاهرين
وأصحابه المنتجبين

مُقَدِّمــة

في هذا الكتاب طَرَحَ سماحةُ المَرجِع الديني آيةُ الله الفقيه السَّيِّد حُسَين السَّيِّد إسماعيل الصدر (دَامَ ظِلُّهُ)، لأوَّل مرَّة مفهوم **(الشَّرَاكَة الوَطَنِيَّة الإِنْسَانِيَّة)**، وهذا المصطلح يُعتبَر ابتكاراً جديداً، في مجال الأدبيات الوطنية، والكتابات المُتخصِّصة في الجوانب الإنسانية والتربوية.. (فالشَّرَاكَة الوَطَنِيَّة الإِنْسَانِيَّة)، تعني: تجاوز حدود النَّظْرة الفرديَّة، والطائفيَّة والقوميَّة لرسم معالَمِ واقعٍ جديدٍ يُلبِّي مُتطلَّبات العصر الحديث.

كما أَنَّ (الشَّرَاكَة الوَطَنِيَّة الإِنْسَانِيَّة)، تعني تجاوز النظرة الحزبيَّة المحدودة بالمصالح الفِئويَّة، وكذلك تعني الابتعاد عن حدود الطائفيَّة، المحصور في نطاقٍ اجتماعي ضيِّق.. إنَّها فضاء كبير وواسع للعمل الوطني، وجهد مثابِر لتقديم كُلِّ ما فيه الخير، للإنسان والأوطان.

كما أنَّ سَمَاحة المَرجِع الصدر (دَامَتْ بَرَكَاتُهُ) كانَ سَبَّاقاً في تأسيس المشروع الوطني الذي تَمخَّض عنه إصدار مجموعة من الكُتُب والمؤلَّفات والبحوث المُختصَّة في إنضاج الثقافة الوطنيَّة، وترسيخ الوعي الوطني الجماهيري، عند عموم أبناء الشعب، للارتقاء بالواقع نحو الأَفضل.

لقد تمَّ عن طريق المشروع الوطني إصدار المُؤلَّفات التالية:

١-كتاب السلام.. مفاهيم وقِيَم.

٢-كتاب السلام.. من منظور تطبيقي.

٣-كتاب السلام.. في مدرسة الإسلام.

٤-كتاب الوطن.. أرضٌ وحضارةٌ تَجمعُنا.

٥-كتاب الوطن.. حاضرنا ومستقبلنا.

٦-كتاب الوطنية.. منهج التكامل بين الإنسان والوطن

٧-كتاب الوطنية.. حَدَاثة المفاهيم وأَصالة القِيَم.

٨-كتاب الوطنيَّة.. العمل من أجل بناء المواطن والوطن.

٩-كتاب الوطنية.. فكر.. ثقافة.. تطبيق.

١٠-كتاب الوطنية.. أصالة الماضي، وعمق الحاضر، وامتداد المستقبل.

١١-كتاب ممارسة الوطنية.. بين حق المواطن وحق الوطن.

١٢-كتاب ممارسة الوطنية.. بين الواقع والطموح.

يُضاف الى ما ذُكِر أعلاه من مؤلَّفات سَمَاحة المَرجِع الصدر (دَامَتْ إِفَاضَاتُهُ)، هذا الكتاب الذي بين أياديكم الكريمة، وهو الكتاب الثالث عشر، الذي يحمل عنوان (مُمَارَسَةُ الوَطَنِيَّةِ.. شَرَاكَةٌ إِنسَانِيَّةٌ لِبنَاءِ الوَطَنِ)، وستتبعه إن شاءَ الله سُبْحَانَهُ سلسلة من الكُتُب الأُخرى، خدمةً للثقافة الوطنيَّة، والأنشطة الإنسانيَّة الهادفة، والله تَعالَى وليُّ التوفيق.

الفصل الأَوَّل

ويتكوَّن من ستَّة مباحث:

المَبحث الأول:

الحِلْمُ.. عَشِيرَةٌ

المَبحث الثاني:

الاستثمارُ السليمُ.. لِحُسْنِ الخُلُق

المَبحث الثالث:

سَعَةُ الصَّدْرِ.. سِمَةُ الأَنْبِيَاءِ

المَبحث الرابع:

الرَّأْيُ.. كَلِمَةٌ

المَبحث الخامس:

النَّفْسُ تُزَكَّى.. بِالْمُحَاسَبَةِ

المَبحث السادس:

مبحث تفسيري

الفصل الأَوَّل

المبحث الأول

الحِلْمُ.. عَشِيرَةٌ

الحِلْمُ.. عَشِيرَةٌ

من الأمور التي نرى لها علاقة وثيقة بالوطنية العملية والتي لابدَّ للفرد الوطني أن يسعى بأن يتحلَّى بها، وأن تكون صفة مستديمة معه بمقدار ما يستطيع، أَلاَ وهي مفردة (**الحِلْم**).

فدائما الحِلم صفة غالية وعالية، وفي تقديري أنَّ الحِلم يجمع ما بين المحبَّة للآخر والشعور بالمسؤولية تجاه الآخر، والاحترام والتقدير للآخر.

يُفرَض لِمَن يريد أن يتحلَّى بالحِلم أن يستجمعَ هذه المفردات حتى يصلَ فِعلاً إلى حِلم عملي، لابدَّ أن يعيش حُبَّ الإنسان، مَثيلِهِ في الخِلْقة، شريكِه في خِلافة ربِّ العالَمين زميلِهِ في إعمار الكون ومنه الوطن.

لابدَّ أن يحمل له درجة من درجات المَحَبَّة، لابدَّ أن يعيش معرفة حقوق وكرامة الإنسان، والمساواة بين الناس، وكيف أنَّ بالمَحبَّة تكون العلاقات طيِّبة ويكون تعاوناً مُثمِراً، كلٌّ بما يمتلك من طاقة وقابليات وقدرات، وبالتأكيد هي غير متساوية.. وكذلك يحتاج الإنسان إلى الشعور بالمسؤولية تجاه وطنه، ولهذا يتحمَّل من أجل ذلك أمانة كبيرة، ولنقل: ولهذا يُربِّي نفسه على الحِلم، وفي حالة أن يضيق عليه حِلمه، فشعوره بالمسؤولية يُصبِّره، لماذا؟!...

لأنَّ الوطن أكبر من الإنسان، الوطن أكبر من الفرد، بل الوطن أكبر من الجماعة، لأنَّه يعني وعاءً لاحتواء شعب، فما دام هو يحمل وطنية عملية لابدَّ أن يشعر بالمسؤولية وأن يكون شعوره بالمسؤولية ضمن وطنيته العملية، إذا جمع ما بين هذه الثلاثة: مَحبَّة، وثقافة حقوق الإنسان، كرامة الإنسان، والشعور بالمسؤولية، ستكون عنده درجة من درجات الحِلم.

ولهذا كلُّ أصحاب الرسالات كانوا يتحلَّون بالحِلم، وكلُّ مَن يعمل ضمن مهمَّات لابدَّ أن يتحلَّى بالحِلم، فلابدَّ لِمَن يحمل ثقافة الوطنية العملية أن يجعل الوطن مسؤولية مهمَّة بالنسبة له، سلامة الوطن مهمَّة بأرضه وإنسانه، ولهذا يسعى من أجل أن يتَّصف بصفة الحِلم.

ولهذا الإمام أمير المؤمنين عليٌّ بنُ أبي طالب (عَلَيْهِ السَّلاَمُ) يعتبر: الحِلم عشيرة، لأنَّ الإنسان الحليم يُحبُّه الجميع، يحترمه الجميع، يستمع إليه الجميع، يُقدِّره الجميع، يقف معه الجميع أو الكثير.

ولهذا يعتبر الإمام (عَلَيْهِ السَّلاَمُ) مفردة الحِلم هي التي تُكوِّن المجتمع المتآخي، المجتمع المتعارِف، والذي هو دائماً يكون سبباً من أسباب الوطن المَنيع، الوطن القويِّ.. ولهذا يقول:-

﴿الْحِلْمُ عَشِيْرَةٌ﴾

بمعنى آخر وبشكلٍ مَجَازي: يمكن أن نقول بأنَّ الإنسان الحليم

يكون صاحب (كاريزما) قوية أو شخصية قوية جذَّابة، تلتفُّ حولها كيانات مختلفة من المجتمع يكون هو محورها وبذلك يكوِّن عشيرة تلتفُّ حوله عن طريق الحِلم.

وهناك من الأقوال ما يُؤكِّد من أنَّ مفردة الحِلم لها علاقة عبادية في علاقة الإنسان مع الله، يمكن هذه العلاقة العبادية تكون بسبب ارتباط مفهوم الحِلم بالخشية والخشوع، لأنَّ الثلاثة هي صفات للقلب (الحِلم والخشية والخشوع)، فدائماً المطلوب في العبادة حالة الخشية والخشوع، يعني: مطلوب الحِلم في العبادة، ولهذا هذا القول المبارك يقول:-

﴿لاَ يَكُونُ الرُّجُلُ عَابِداً حَتَّى يَكُونَ حَلِيْماً﴾

والقول الآخر يُوحِي بأنَّ الحِلمَ مسألةٌ اجتماعيةٌ لها علاقة بالوطن والمجتمع، ففي كلِّ المجتمعات هناك تيارات خير وتيارات عكس الخير.. هناك تيارات إيجابية وهناك تيارات سلبية، وهذا القول المبارك يُؤكِّد على أنَّ مَن يتَّصف بالحِلم، يكون الحِلمُ ناصراً لوطنيته، ناصراً لثقافته، وبالنتيجة يكون ناصراً لوطنه، وبالتأكيد الذي يكون حليماً هو أقربُ من غيره لوصوله إلى غايته وهدفه.

﴿السِّلْمُ ثَمَرَةُ الحِلْمِ﴾

هناك أقوال للإمام أمير المؤمنين تُؤكِّد الأثر العَمَلي للحِلم، فيذكر من أهمِّ الآثار العملية للحِلم هو: (**تَحَمُلُهُ لإِخْوَانِهِ**)، يعني: تحمُّله لأبناء وطنه، بكلِّ ثقافاتهم، بكلِّ مستوياتهم، بكلِّ أطروحاتهم.

ولهذا يصفه الإمام (عَلَيْهِ السَّلاَمُ) في بعض أقواله على أنَّه:

الحليم يكون قويَّاً في داخله، وهذه القوة في داخله، في نفسه، تظهر في تعامله مع الآخرين بشكلٍ إيجابي واستيعابه للآخرين، ومفهوم استيعابه للآخرين هي هذه الوطنية العملية، وسُئِلَ الإمام عليٌّ (عَلَيْهِ السَّلاَمُ): مَنْ أقوى الخَلْق؟!... قال:-

﴿الحَلِيْمُ﴾

بالتأكيد أنَّ هناك الكثير من المفاهيم، وهناك الكثير من النصوص التي يمكن أن تُذكَر في مفردة الحِلم، والتي لها آثار حياتية إيجابية كثيرة، ولكن نتحدَّث بمقدار ما له علاقة بالوطنية العملية، ويمكن أن أختمَ كلامي أو حديثي عن الحِلم بتعريفٍ للإمام عليٍّ (عَلَيْهِ السَّلاَمُ) وهو:-

﴿أَلاَّ تَغْضَبَ﴾

فدائماً الغضب هو من أهمِّ أسباب فقدان الإنسان لقِيَمه، إن لم يُمسِك غضبه، فإنَّه يقع في مشاكل مع الآخرين، ويكون الشخص المُتَّصِف بالغضب من أهمِّ أسباب إثارة السلبيات في الأُسرة أو ما بين أفراد المجتمع أو ما بين المجتمعات نفسها.

أمَّا إذا أمسكَ غضبه، يعني ذلك هو الحليم، يعني ذلك يُترجِم الوطنية العملية بأجلى صورها.

بالتَعَامُل المُتَمَيِّز.. نَتَوَحَّد

مِن أُسُس الوطنية العملية.. أَن يُجسِّد المواطن وطنيته في سلوكه وتصرُّفاته، لأنَّه القدوة الذي يقتدي به المجتمع.. وبالتأكيد أنَّ ذلك يدخل ضمن السلوك والتصرُّفات المطلوبة في برمجة الوطنية العملية، التي تُؤلِّف ما بين أبناء الشعب الواحد، وتُعطي القوة للوطن كذلك تكون نتائج: التعامل الجيِّد، التعامل المتميِّز مع الآخرين.. لأنَّ مَن يشعر بالمسؤولية، يحاول أن يستجمع ما يُؤهِّله لحَمْل الرسالة وأدائها، فيكون عنصراً إيجابياً مؤثِّراً فاعلاً مع أبناء شعبه، وأفراد مجتمعه.

إنَّ التعامل المُتميِّز يعني: الخُلُق الجيِّد.. هذا التعامل سيكون له الأثر الكبير في تعارف أبناء الشعب، في وحدة أبناء الشعب، في تعاونهم من أجل سلامة وطنهم بأرضه وشعبه.. والخُلُق الجيِّد يجعل حامل الرسالة الوطنية، أكثر قدرة، على جعلها مفردات حياتية يتعامل بها مع الآخرين.

بالتأكيد أنَّ مسألة الخُلُق والأخلاق ليست مفردة روتينية، أو أنَّها تعني: المجاملة مع الآخرين.. وإنَّما مفردة الخُلُق: هي منهج عمل لحياة الفرد الذي يحمل هذه الصفة الجميلة والرائعة.. يعني: ستكون كلُّ تصرُّفاته في حياته، بخُلُق.. كلَّ ما يعمل في حياته،

بخُلُق.. علاقاته، بخُلُق.. تعامله مع أُسرته، بخُلُق.. تعامله مع المجتمع، بخُلُق.. تعامله مع الشعب، بخُلُق.. يعني: أن يجعل بمقدار ما يستطيع، عمله ضمن كلِّ جوانب حياته، بشكل متميِّز.. هذا ما نفهمه من الأخلاق.

لهذا دائماً أصحاب الرسالات والمُصلِحين يكونون على خُلُقٍ متميِّز، لأنَّهم جاءُوا بمهمَّة، ولا يمكن إيصال هذه المهمَّة إلاَّ بالأخلاق.. إلاَّ بأن يُؤدُّوا كلَّ المفردات بأجمل صُوَرِها وأحسن صُوَرِها، وأن يكونوا مَثَلاً جميلاً في تصرُّفاتهم مع الجميع.. وعلى رأس المُصلِحين: الأنبياء والمرسلون، ولهذا نرى أنَّ الله ﷻ عندما ذَكَرَ نبيَّه الكريم ﷺ بأعلى درجات الوَصْف قال له:-

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]

الخُلُق (بالمعنى الذي بيَّنَّاه) ليس فقط المجاملة والكلام اللَّيِّن.

وكأنَّ نتيجة الأخلاق تكون درجة من درجات الأُسوة والقُدوة، فعندما تكون تصرُّفاتُ شخصٍ مُتَّصِفة بأخلاق حَسَنَة، يعني: جيِّدة، يعني: متميِّزة، فسيكون هذا الشخص خَلُوقاً.

بشكل عام، الأخلاق: مفردة أساسية في سعادة الإنسان داخل نفسه، وسعادته في أسرته، وسعادته وأثره في مجتمعه.. فهو صاحب رسالة، يُجسِّدها بشعوره بالمسؤولية، ويحاول أن يجعل الجميع يشعرون بالمسؤولية تجاه وطنهم، وذلك بتنمية معنى

---

[1] سورة القلم/آية/٤.

الوطن، ومفهوم الوطنية، وهذا يحتاج إلى مفردات ذَكَرْنَا بعضَـها، ومن أهمِّ هذه المفردات هي: الخُلُق، أو الأخلاق الحسنة.. فالإنسان بأخلاقه الحسنة، والذي جزء منها: مُتمثِّل بطِيْـب كلامـه، والتـي تتَّضح من معالم سلوكه.

هذا الإنسان سيتمكَّن أن يُؤثِّر في المجتمع، وأن يطرح منهج الوطنية العملية لأسباب:

السبب الأول: يُفرَض أن يكون صاحب الأخلاق الحَسَنة، عمل من أجل تربية نفسه.

السبب الثاني: أنَّ الأخلاق الحَسَنة أساسها الـداخل، ولـيس الخارج، فهي يمكن أن نُسمِّيَها: قوَّة في داخل الإنسان، مَلَكة فـي داخل الإنسان، هذه القوَّة تنعكس على ظاهره، في كلِّ واقع حياته، وبها يدخل صاحب الرسالة الإصلاحية إلى المجتمع، ولهـذا نـرى القرآن الكريم عندما يذكر قول الله ﷻ:-

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١]

كـان ذلك نتيجة تربية وانعكست هذه التربية الداخلية علـى كلِّ مفردات حياته، ولهذا يذكره القرآن الكـريم فـي مكـان آخـر ويقول:-

﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢]

---

[١] سورة القلم/آية/٤.

[٢] سورة التوبة/آية/١٢٨.

يعني أنَّه (أي: النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم) يعيش حياة الحِرص على الآخرين الذي يأتي نتيجة حُبِّ الآخرين، ونتيجة ترويض الداخل على التفاعل الإيجابي مع الآخرين.. فهو حريصٌ عليكم، ضمن كلِّ ظروفكم، ضمن فرحكم ولا يُوصِلكم إلى الخطأ، من خلال حزنكم ولا يُوصِلكم إلى الانحراف.

وتعامله دائماً مع الآخرين وبهذه الروحية.. يتعامل برأفة، أَي: إيصال ما يريد إيصاله إلى الآخر، بهدوء وباعتناء وبتشويق، فهو رؤوف ورحيم.. هدفه: ليس نفسه، وإنَّما هدفه: الإنسان الآخر سواءً كان فرداً أو مجتمعاً أو شعباً.

ولهذا (عَلَيهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةُ وَأَتَمُّ السَّلاَمُ) يحمل هذه المسؤولية، ويبذل جهده من أجلها، وفي سبيل إيصالها، رحمة بالآخرين، من أجل أن تكون حياتهم سعيدة، مطمئنَّة.

وهكذا كلُّ إنسان يريد أن يحمل رسالة.. ومن أهمِّ الرسائل التي يمكن أن تُحمَل إلى الشعوب: رسالة الوطنية العملية، والتي تجمع ما بين الشعور بالمسؤولية الإيمانية، والشعور بالمسؤولية الوطنية، والشعور بالمسؤولية الإنسانية.

فالأخلاق.. هي الباب الأوسع، والسبيل الأقرب، للتأثير على المجتمع، وبعكسه يكون الإنسان إنساناً مُهمِلاً أو محدوداً جداً، في معرفته بالآخرين، فضلاً على التأثير فيهم، ولهذا ربُّ العالَمين يقول لنبيِّه صلى الله عليه وآله وسلم:-

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّه لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1]

إنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يتحلَّى بالخُلُق العظيم.. وكان خُلُقه، قُوَّة ومَلَكة في داخله لا يمكن أن تنفصل عن ذاته، لأنَّه (بحسب إيماننا) معصوم، ولكن لابدَّ من الإشارة إلى ما يلي:

إنَّ الله ﷻ الذي خَلَق الإنسان، أَمَره أن يقتدي بالنَّبيِّ المعصوم.. يعني: الإنسان يتمكَّن أن يسير ويتخطَّى خُطَاه.. لا نقول: أنَّه يكون كالأنبياء والمُرسَلين، ولكن يمكن أن يحمل رسالة مُؤثِّرة في مجتمعه وشعبه.

دائماً، نرى النصوص الدينية تُوضِّح لنا: مفهوم حُسْن الخُلُق كمسألة اجتماعية، مسألة تعامل، ومسألة بناء علاقات.

لهذا هناك قول للنَّبيِّ ﷺ في موضوع حُسْنِ الخُلُق، يُؤكِّد على: بناء أسرة وبناء مجتمع وبناء شعب (لأنَّ الشعب يتكوَّن من عدَّة مجتمعات) ويقول في تقريب مفهوم حُسْن الخُلُق الذي يُوصِلنا إلى الوطنية العملية:-

﴿أنْ تَصِلَ مَن قَطَعَكَ، وتُعْطِيَ مَن حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ﴾

كلّها مفردات تُعزِّز البناء الاجتماعي، تبني علاقات إنسانية..

---

[1] سورة آل عمران/آية/١٥٩.

والتي من شأنها أن تُقوَّيَ الإنسان، كفرد.. وتُقوِّيَ الإنسان، كمجتمع.. وتُقوِّيَ الإنسان، كشعب.. وعندما يقوى الشعب، يقوى الوطن.

هذه المفردات يذكرها النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم، وهي من أجمل صِيَغ التعامل.. التي تغرس قِيَم الوطنية العملية بين أبناء المجتمع، ومن ثمَّ بين مُكوِّنات الشعب.

ويمكن تفصيل الحديث النَّبويِّ الشريف، لأنَّه يحتوي على عِدَّة توصيات هي:

الوصية الأولى: ﴿أنْ تَصِلَ مَن قَطَعَكَ﴾

من الممكن أن يبنيَ الإنسان علاقات مجتمعية.. ويحصل لظرف أو لسبب معيَّن، انقطاع في استمرارها.. هنا تأتي الوصية الأولى وأهميتها:

لو أنَّ كلَّ مَن قَطَع علاقته معك، تبادِر بمقاطعته.. وكلَّ مَن ابتعد عنك، تبتعد عنه، هذا يعني: أنَّ المجتمع ككلٍّ سيتفكَّك بالتدريج، وبالنتيجة سيضعُف، وإذا كلٌّ من قاطَعَك، تُقاطِعه، يمكن أن تدخل هواجس للنفس كلّما زادت مدَّة المقاطعة، ممَّا يزيد في سوء العلاقة ما بين الاثنين أو ما بين المجموعتين.

ولهذا النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يريد أن يعالج هذه السلبية، التي يمكن أن تحصل في المجتمعات.. فلو حصلت قطيعة معك من جانب مُعيَّن، فالمطلوب منك: ما دمتَ تحمل رسالة الوطنية العملية، وتتحلَّى

بحُسْن الخُلُق.. عليك أن تَصِل من قَطَعك.

الوصية الثانية: ﴿وتُعْطِيَ مَن حَرَمَكَ﴾

على قاعدة:-

﴿كُلُّكُمْ رَاعٍ وكُلُّكُمْ مَسْؤُوْلٌ عَنْ رَعِيَّتِه﴾

هذه القاعدة تعني: أنَّ كلَّ فردٍ من أبناء المجتمع، ومن أفراد الشعب، لابدَّ أن يُقدِّم لأخيه ما يتمكَّن من مساعدة، سواءً كان: من عِلْم، أو من جاه، أو من مال، بحسب حاجة الآخر.

فإذا حصل في المجتمع مَن كان لديه عِلْم أو جاه أو مال، ولكنه لم يُعْطِ الآخر، لا من عِلْمه ولا من جاهه ولا من ماله.. فهل يعني ذلك مقابلته بالمثل؟... النَّبيُّ ﷺ يقول له: ما دامت صفة حُسْن الخُلُق متوفِّرة فيك، فيُفرَض.. أن تُعطيَ مَن حَرَمَك.

الوصية الثالثة: ﴿وتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ﴾

يمكن أن تحصل في المجتمع حالات إساءة، كأن ينال البعض من البعض الآخر، أن يتقوَّل شخصٌ على شخصٍ آخر، ويمكن أن تصل إلى اتِّهام البعض للبعض.. هذه المفردات الشائعة في كثير من المجتمعات، نتيجة: عدم التثبُّت، ولهذا يتكلَّم طرف عن الطرف الآخر من دون تثبُّت.

بالتأكيد: أنَّ الحقيقة ستظهر، ولكن يُفرَض لصاحب الأخلاق الحَسَنَة، والذي عمل من أجل تربية نفسه وتطهيرها، وحَمَل مبادئ

رسالية سواءً كانت هذه المبادئ إيمانيـــة أو إنســـانية أو وطنيـــة، فتكون من أُسُس علاقته مع الآخرين: العفو عمَّن ظَلَمه.. فلو كـــان هناك شخص من أفراد المجتمع حصل منه ظلم بشكل من الأشـــكال للآخر، المفروض من الآخر الذي تخلَّق بالأخلاق الحَسَنَة.. أن يعفو عنه.

وكأنَّ الحديث يريد أن يقول للإنسان الناضج:

إنَّ ما تملكه، وما لديك من قابليات وقدرات، ومنها ﴿**أَنْ تَصِلَ مَن قَطَعَكَ، وتُعْطِيَ مَن حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ**﴾.. هذه نِعَم إلهية مُتوفِّرة لديك.. فيُفرَض ألاَّ تحبسها عن خَلْـــق الله ﷻ.. يُفـــرَض ألاَّ تمنعها عن أقرب الناس إليك، الذين هم أبنـــاء مجتمعـــك وأفـــراد شعبك، ما دمت أنتَ تحمل أمانة صيانة الأرض التي أورثها الله ﷻ إليك، أنت مع بقية الناس على هذه البقعة والتي صارت وطناً لكم.. فما دُمْتَ تملك هذا الشعور بالمسؤولية، لابـــدَّ أن تتَّصـــف بهـــذه الصفات، من أجل أن تكون وطنيتك وطنية عملية.

الفصل الأَوَّل

المبحث الثاني

الاسْتِثمَار السَّلِيم.. لِحُسْنِ الخُلُق

الاسْتِثْمَار السَّلِيم.. لِحُسْنِ الخُلُق

لابُدَّ مِن حُسْن الخُلُق من أجل تطبيق الوطنية العملية، ووحدة الشعب، والتآخي ما بين أبناء الوطن الواحد.. فالأخلاق الحَسَنة، أو حُسْن الخُلُق، مسألة ضرورية ما بين أفراد الشعب، ما بين أبناء المجتمع، إذا كانوا يريدون أن يُوحِّدوا شَمْلهم، ويعملوا من أجل تقوية وطنهم وبلدهم، وإعلاء مكانتهم.

فمسألة حُسْن الخُلُق، مسألة بناء لعلاقات وصِلات، أساسها حُبُّ الإنسان الآخر، أساسها حبُّ الوطن، وقبل ذلك أساسها حُبُّ اللهﷻ.

وعندما تكون مسألة حُسْن الخُلُق أساسية ورئيسية.. لابدَّ أن نُلفِت الأنظار إلى أنَّ حُسْن الخُلُق يكون على صورتين:

الصورة الأولى: أن يكون حُسْن الخُلُق عند الأشخاص المُتَّصِفين به جزء من كيانهم الذاتي ومن طبيعتهم التكوينية، فيكون حُسْن الخُلُق طبيعة سلوكية أصيلة.

ولهذا نرى بعض الأفراد، وكأنَّ حُسْن الخُلُق لديهم سَجِيَّة، وكأنَّها عندهم هي الأصل في أسلوب تعاملهم مع الآخرين، ومَن يتتبَّع حياة الأفراد يمكن أن يرى ذلك عند البعض، منذ نعومة أظفاره ومن طفولته ومن بداية

صباه.

بالنتيجة: يكون حُسْن الخُلُق عنده سَجِيَّة، من دون تكلُّف، وبالتأكيد أنَّ هذا الإنسان بهذه المواصفات، سيسهل عليه برمجة العلاقات الطيِّبة ما بينه وبين الآخرين.

من منظار إيماني نقول: لابدَّ أن يستشعر الإنسان وبشكل دائم ومُتَّصل ومُتواصل: الشكر لله ﷻ على هذه النعمة (نِعمة حُسْن الخُلُق) التي أنعمها الله ﷻ عليه، وجعلها ضمن طبيعته، فيأتي بها من دون تكلُّف.

بالتأكيد نحن لابدَّ أن نشكر الله ﷻ على كلِّ شيء.. ولكن هذه من المفردات التي إن التفتَ إليها الإنسان. لابدَّ أن يشكر الله ﷻ عليها كثيراً لأنَّها نعمة كبيرة.. فهي تُقرِّبه إلى الله ﷻ، تُقرِّبه إلى النَّبيِّ الكريم ﷺ، تُقرِّبه إلى الجنَّة، تُقرِّبه إلى الناس، تُقرِّبه من جميع أبناء وطنه، وشُكْر هذه النعمة ليس فقط أن يقول (الشكر لله ﷻ)، وإن كان ذلك مطلوباً، وإنَّما دوام التفاعل مع هذه النعمة بصورةٍ عمليةٍ لضمان استدامتها وبقائها.

إنَّ شكر هذه النعمة يَفرِض على الإنسان أن يستثمرها الاستثمار السليم، أن يستثمرها من أجل رسالته الإنسانية الإيمانية الوطنية، أن يستثمرها من أجل إيصال البرنامج الإلهي العام للمجتمع وللشعب وللأُمَّة وللبشرية (فالرحمة الإلهية وَسِعَت كلَّ الخَلْق بكلِّ دياناتهم، وبكلِّ مكوناتهم من الناس، وحتَّى مَن لم يكن

له ديانة.. فرحمته وسعت كلَّ شيء، ورحمته لكلِّ العالَمين، وليس فقط تقتصر على الإنسان، وإنَّما حتَّى الحيوان والنبات وبقية الموجودات).

لابدَّ أن يعمل الإنسان الهادف من أجل: إيصال ثقافة حقوق الإنسان، كرامة الإنسان، المساواة ما بين الناس، العدل المطلوب ما بين الناس، وفي كلِّ المجتمعات، ويستثمرها كذلك في تأكيد مفهوم الوطن.

في الحقيقة، لا معنى لمفهوم الوطن من دون وطنية، فالوطن بدون مفهوم الوطنية يكون شيئاً جامداً، وكأنَّه لا حياة فيه، أمَّا تفاعل الشعب مع الوطنية من قِبَل أفراده تجاه الوطن، ستكون الحياة.

إنَّ ثقافة الوطنية وحدها لا تفي بالغرض المطلوب.. وإنَّما لابدَّ أن تكون وطنية عملية، وليس فقط أن تكون الدعوة للوطنية كفِكْر، وإنَّما يجب أن تكون الدعوة إليها كفِكْر وكعمل.. مِن هنا نفهم: أنَّ الوطني الذي يُجسِّد وطنيته في عمله، يكون قدوة لأبناء الوطن.

الصورة الثانية: أن يكون حُسْن الخُلُق بحاجة إلى تربية، بحاجة إلى تأهيل، أي يُؤهِّل الإنسان نفسه، بحاجة إلى نيَّة صادقة لهذا التأهيل، ونيَّة صادقة من أجل الوصول إلى الهدف الذي هو حُسْن الخُلُق أو الأخلاق الحسنة.

كلُّ العناصر التي تُحقِّق وجود الأخلاق الحَسَنة موجودة عند الإنسان على مستوى القابليات، الأساليب، المَلَكات، الاستعدادات، فكلُّ مَن أراد تربية نفسه، وجعل مِن نيَّتِه أن يكون حُسْن الخُلُق هدفه الأساس، عليه أن يستجمع ما لديه من طاقات وقابليات من أجل أن يتحلَّى بهذه الصفة.

وبحسب فهمي: أنَّ الذي يكون له هذا الدافع، ومن مُنطَلَق إيماني، مَن أحبَّ اللهﷻ، فهو لابدَّ أن يُحبَّ خَلْقه، كيف يُحبُّ خَلْقه؟!... لابدَّ أن يترجم حبَّه لخَلْقه.. لا يتمكَّن أن يترجم حُبَّهُ لخَلْق اللهﷻ إلاَّ بالأخلاق الحَسَنَة، إلاَّ بحُسْن الخُلُق.. وبهذا جمعنا ما بين المسألة الإيمانية، والمسألة الإنسانية.

بعد ذلك أقول: لا يمكن أن أتصوَّر إنساناً (وهذا الإنسان لابُدَّ أن أتعامل معه بأخلاق حَسَنَة) إلاَّ إذا كان لديه وطن.. وأنا شريك معه في هذا الوطن، أو هو شريك معي في هذا الوطن، فهو يكون الأَوْلَى من غيره، لأن أستثمر حُسْن الخُلُق معه.

وبالنتيجة يكون: مَن أحبَّ اللهﷻ، يحتاج إلى حُسْن الخُلُق.. ومَن أحبَّ الإنسان، يحتاج إلى حُسْن الخُلُق.. ومَن أحبَّ الوطن، يحتاج إلى حُسْن الخُلُق.

فبحُسْن الخُلُق يكون الإنسان في علاقته مع اللهﷻ خاشعاً متواضعاً ممتثلاً طائعاً.. وبحُسْن الخُلُق: يكون مع أخيه الإنسان متساوياً متعاوناً، يُقدِّم له ما يتمكَّن، يعمل ما يستطيع.. وبحُسْن

الخُلُق، يكون مع الوطن كذلك، أن يقدِّم له ما يتمكَّن، ويعمل له كلَّ ما في وُسْعه.

لأنَّه يرى وجوده الإيماني، بعلاقته مع اللهﷻ، ووجوده المادي، بعلاقته مع الوطن، ووجوده الإنساني، بعلاقته مع أخيه الإنسان، الشريك معه في هذا الوطن.

بذلك يُترجِم وطنيته العملية.. بشكل واقعي، مدروس، منهجي، مؤمن به، يعيشه.

إِنَّنا بحاجة دائماً إلى حُسْن الخُلُق.. ليس نتيجة رغبة، ولا نتيجة ظروف معيَّنة، أو نتيجة مصالح معيَّنة.. وإنَّما لابدَّ أن يكون حُسْن الخُلُق، إمَّا: بدافع ذاتي، كسَجيَّة، وطبيعة ضمن تكوين الإنسان، وإمَّا: أن تأتي ضمن تربية الإنسان لنفسه، فكلُّ المؤهِّلات موجودة عند الإنسان.

النتيجة: سوف يكون بحُسْن خُلُقه هو الأقرب إلى اللهﷻ، والأقرب إلى الرسول الكريم ﷺ والأقرب إلى الجنَّة، والأقرب إلى الناس.

كثيراً ما يحرص أفراد المجتمعات على عنوان: السُّمْعَة.. أي: يحرص على أن تكون سُّمعته جيِّدة، ويكون اسْمُه مقروناً بالكلام الطَّيِّب.. والحقيقة أنَّ أقرب الأمور التي تُوصِل الإنسان إلى السمعة الجيِّدة والكلام الطَّيِّب.. هو: حُسْن الخُلُق.

بالتأكيد أنَّ ما نقصده من حُسْن الخُلُق، هو الذي بيَّنَّاه:

أن يكون الإنسان جيِّداً في كلِّ تصرُّفاته.. فالمسألة ليست مجاملة فقط وكلمات طيِّبة.. وإنَّما يكون حَسَن الأخلاق في تعامله، في بيعه، في شرائه، مع أهله، مع جاره، في معمله، في مزرعته، مع مَن يدرس عنده ومع مَن يُدرِّسهم، وهكذا.. عند ذلك يكون فعلاً من أقرب المقرَّبين للآخرين، وذي سُمعة طيِّبة وجيِّدة.. ولأهمِّيَّة حُسْن الخُلُق، وما له من آثار عظيمة وكبيرة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لذا نرى أَنَّ النَّبيَّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم يقول:-

﴿إِنَّ أَحَبَّكُم إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَجْلِساً أَحْسَنُكُمْ خُلُقاً، وَأَشَدُّكُمْ تَوَاضُعاً﴾

وفي هذا القول المبارك إشارة إلى مسألة ضرورية أخرى في علاقات الأفراد فيما بينهم، في علاقة أبناء الوطن الواحد فيما بينهم، وهي: نُكران الذات، والذي يُسمَّى في الأحاديث **(التواضع)**.

دائماً من تمام وعلوِّ الأخلاق أنَّ الإنسان يُنكِر ذاته أمام الآخرين، بمعنى: يتواضع في تعامله مع الآخرين، وخصوصاً إذا كان هذا الآخر من أبناء شعبه ووطنه، فيفرض أن يكون شريكه في الأرض، وشريكه في المصير، لأنَّ الإنسان الوطني يرى وجوده بوطنه، ولهذا يقول النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم:-

﴿وَأَشَدُّكُمْ تَوَاضُعاً﴾

وكذلك التربية الإلهية للفرد المؤمن، التي نَصَّ عليها المنهج

القرآني كما جاء في قوله تَعَالَى:-

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[1]

وضمن أجواء هذه الآية، نفهم قول النَّبيِّ ﷺ:-

﴿أَشْبَهُكُمْ بِي أَحْسَنُكُمْ أَخْلاَقاً﴾

هنا، ﴿أَشْبَهُكُمْ بِي﴾، بمعنى: الأكثر اقتداءً بالقدوة، الأكثر اقتداءً بالأُسوة، الأكثر تأسِّياً.. وكأنَّه من باب التقريب، قال النَّبيُّ ﷺ: ﴿أَشْبَهُكُمْ بِي أَحْسَنُكُمْ أَخْلاَقاً﴾.

لأنَّ علاقتنا بالنَّبيِّ ﷺ ليست علاقة شخصية فقط، وإنَّما هي علاقة رسالية، وعلاقة منهج، وعلاقتنا به ضمن المبعوثية الإلهية للبشرية، قلنا سابقاً، أنَّ أُسُس الإيمان هي:

الأول والثاني: حبُّ اللهﷻ وحبُّ النَّبيِّ.. كقول النَّبيِّ ﷺ:-

﴿وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُوْنَ اللهُ وَرَسُوْلُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ﴾

الثالث: حبُّ الوطن.. الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ:-

﴿حُبُّ الْوَطَنِ مِنَ الإِيْمَانِ﴾

هنا، النَّبيُّ ﷺ يقول:-

﴿أَكْمَلُ الْمُؤمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُم خُلُقاً﴾

﴿أَكْمَلُ الْمُؤمِنِينَ إِيمَانًا﴾: لأنَّ الإيمان درجات، الحُبُّ لله

[1] سورة الأحزاب/آية/٢١.

درجات، وتكون النتيجة بمقدار الطواعية له والاستجابة له..

كذلك الحبُّ للنَّبيِّ صلى الله عليه وآله درجات، وتكون النتيجة بمقدار الطاعة له والتأسِّي به.

أيضاً الحبُّ للوطن درجات، وتكون النتيجة: أنَّ المطلوب في أكمل صور حُبِّ الوطن، والإيمان بحُبِّ الوطن، هو الإيمان بالوطنية العملية، ولهذا يقول:-

﴿أَكْمَلُ الْمُؤمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُم خُلُقًا﴾

بالتأكيد، دائماً معنى حُسن الخُلُق هو: ممارسته في الحياة، وليس مسألة ألفاظ ولسان.. ممَّا يُؤكِّد أنَّ مسألة حُسْن الخُلُق ليست مسألة نظرية فقط، ولا مسألة لفظية وكلامية.. وإنَّما هي مسألة برمجة حياة، ولهذا تدخل في كلِّ تفاصيل حياة الإنسان.. وعليه فإنَّ لِحُسْن الخُلُق، مقومّات أربعة:

أولها: الحِكمة.. تنظيم الفكر، ويمكن تسميتها: الفكر الناضج.. ومن مُنطلَق إيماني، نعتقد أنَّ الحِكمة: مسألة تعلُّم وثقافة وخِبرة، ولكن هذه العناصر الثلاثة تكون مربوطة مع الله تعالى، عند ذلك تبدأ الحكمة، وبالنتيجة:-

﴿يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[1]

فالعِلْم نتيجته: الحسابات، التي تكون أقرب للصواب.. والثقافة

[1] سورة البقرة/آية/٢٦٩.

نتيجتها: معرفة المجتمع أكثر، والعلاقة مع اللهﷻ نتيجتها: مفهوم الاستقامة أوضح.

ثانيها: العِفَّة.. دائماً لها علاقة بتنظيم الغرائز، ببرمجة ميول الإنسان الداخلية..

ثالثها: القوَّة.. مرَّةً: نُعطيها معنى: الوضوح في الفكر.. ومرَّةً: نُعطيها معنى: الوضوح في سلامة التصرُّفات.

فصاحب الخُلُق الحَسَن قويٌّ قبل كلِّ شيء، مُتمكِّن من نفسه، خصوصاً في الأوقات الاستثنائية مثل: الغضب، وإساءة الآخرين إليه، ومظلوميته.. هنا يكون موقفه عدم الردِّ، وهذا موقف قوة.. وعدم المقابلة بالمثل، وهذا يعني قوة.

رابعها: صاحب الخُلُق الحَسَن يمتاز بصفة العدل.. مرَّةً: يكون صاحب الخُلُق الحَسَن على أنَّه يتمكَّن من داخله ويتمكَّن من موازنة رغباته.. ومرة: يتمكَّن من ممارسة العدل في الخارج، العدل مع الآخرين.

يمكن هذا المعنى نفهمه، عندما نستنطق الآيات الكريمة التي تأمر بالعدل:-

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]

[1] سورة النحل/آية/٩٠.

ويقول (جَلَّ وَعَلاَ):-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[١]

ويقول (عَزَّ مِنْ قَائِلٍ):-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٢]

ويقول (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى):-

﴿....وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٣]

ويقول (عزَّ وَجَلَّ):-

﴿....وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٤]

ويقول (جَلَّ وَعَلاَ):-

﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ

---

[١] سورة النساء/آية/١٣٥.

[٢] سورة المائدة/آية/٨.

[٣] سورة المائدة/آية/٤٢.

[٤] سورة الأنعام/آية/١٥٢.

وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(١)

ويقول (عَزَّ مِنْ قَائِلٍ):-

﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٢)

ويقول (جَلَّ وَعَلاَ):-

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾(٣)

ويقول (عزَّ وَجَلَّ):-

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾(٤)

ويقول (جَلَّ وَعَلاَ):-

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا

---

(١) سورة النحل/آية/٧٦.

(٢) سورة النحل/آية/٩٠.

(٣) سورة النحل/آية/١٢٦.

(٤) سورة ص/آية/٢٦.

﴿وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[١]

ويقول (عزَّ وجَلَّ):-

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾[٢]

ويقول (جَلَّ وعَلاَ):-

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٣]

هذه الآيات المباركة تُعطينا صورة واضحة عن حُسْن الخُلُق والسلوكيات المرتبطة بحُسْن الخُلُق، وسنُفرِد بحثاً تفسيرياً لشرح مقاصد هذه الآيات الكريمة بالتفصيل.

بهذا نكون قد عشنا فلسفة حُسْن الخُلُق، المُوصِل إلى الوطنية العملية، وعرفنا أهمِّيَّة ذلك، ولهذا الإمام أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام يقول:-

﴿رَوِّضُوْا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الأَخْلاَقِ الْحَسَنَةِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ يَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ﴾

المسلم: مَن استسلم لله سبحانه وتعالى، يعني: أصبح مسلماً بحُسْن خُلُقه فيكون دائماً عابداً لله سبحانه وتعالى.

---

[١] سورة الشورى/آية/١٥.

[٢] سورة الرحمن/آية/٩.

[٣] سورة الحديد/آية/٢٥.

بالتأكيد ليس منّا من يكون كالنَّبيِّ الكريم صلى الله عليه وآله ولكن علينا أن نتأسَّى به.. وكذلك ليس منّا من يكون كعليٍّ ابن طالب عليه السلام، ولكن لابدَّ أن نقتدي بعليٍّ.. فعليٌّ بن أبي طالب عليه السلام يقول:-

﴿ لَوْ كُنَّا لاَ نَرْجُو جَنَّةً وَلاَ نَخْشَى نَاراً وَلاَ ثَوَاباً وَلاَ عِقَاباً لَكَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَطْلُبَ مَكَارِمَ اَلأَخْلاَقِ فَإِنَّهَا مِمَّا تَدُلُّ عَلَى سَبِيلِ اَلنَّجَاحِ﴾

نجاح الإنسان في حياته.. وإذا كان مؤمناً، فنجاحه في حياته وفي آخرته.

نجاح الإنسان في حياته: في تأكيد علاقات مُثمِرة إنسانية، تجمع بين (ما بيَّنَّاه) من معاني الحِكمة والعِفَّة والقوَّة والعدل عند الإنسان صاحب الخُلُق الحَسَن كيف يتعامل، مع بقية أفراد شعبه، مع بقية أبناء الوطن.. بذلك يتمَّكن من أن يُجسِّد الوطنية العملية.

الفصل الأَوَّل

المبحث الثالث

سَعَةُ الصَدر.. سِمَةُ الأَنْبِيَاء

سَعَةُ الصَدر..سِمَةُ الأَنْبِيَاء

من خصائص الوطنية العملية، أنَّها تحتاج إلى سَعَة الصدر الذي يعكس مقدار الشعور بالمسؤولية.. فكلَّما يكون شعور الإنسان بالمسؤولية أكثر، يُفرَض أن تكون سَعة صدره، أوسع.

لأنَّه بشكل عام، لابُدَّ لصاحب الخُلُق الحَسَن مِن التفاعل مع المجتمع ومع الشعب، مع الأخذ بالاعتبار: تفاوت ثقافاتهم، وتفاوت عقولهم، واختلاف مجتمعاتهم، وتعدُّد قومياتهم.. بالإضافة إلى أنَّه يمكن أن يكونوا من أديان متعدِّدة، وهذا يعني: أنّ هناك حضارات متعدِّدة، وهذا كذلك يعني: أنَّ هناك عقائد متعدِّدة، وآراء متعدِّدة.

ولهذا الإنسان صاحب الخُلُق الحَسَن يُجسِّد الشعور بالمسؤولية مع المجتمع، مع الشعب.. والذي يُجسِّد الوطنية العملية، يحتاج إلى سَعة الصدر.

سَعَة الصدر.. محاولة استيعاب الآخر، والشيء الذي لا بدَّ أن نُوضِّحه: أنَّ محاولة استيعاب الآخر، لا يمكن أن يتمَّ من طرف واحد، وإنَّما لابدَّ أن يتمَّ من الطرفين.. لكن أول ما يُفرَض: أن يكون من طَرف الإنسان الذي يشعر بالمسؤولية الوطنية، ويعمل من أجل تجسيدها عملياً، بأن يتعامل مع الآخر، مع الاعتراف بالآخر، وبكلِّ خصوصياته.

بالتأكيد يعني ذلك: ليس بالضرورة، أنَّ صاحب الخُلُق الحَسَن يتَّفق مع كلِّ خصوصيات.. لكنَّه ما دام يعمل من أجل إيمان عملي، ووطنية عملية، وإنسانية عملية.. فهو لابدَّ أن يشعر بالمسؤولية، ويريد أن يترجم وطنيته بصورة عملية، فلابدَّ أن يعترف بالآخر، والآخر موجود، والآخر إنسان، مع وجود كلِّ الملاحظات التي من الممكن أن تكون مُسجَّلة عليه، ولكنَّه رغم كلَّ ذلك فهو خليفةُ ربِّ العالَمين في الأرض، كما أنَّ الآخر شريك لصاحب الخُلُق الحَسَن في الأرض والوطن.

لهذا لابدَّ من محاولة استيعاب الآخر، الذي يكون في البداية، من الطرف الشاعر بالمسؤولية تجاه وطنه، ويعمل من أجل وحدة شعبه.. والإنسان الآخر (إن لم يكن يحمل تعقيداً مُعيَّناً لظروف، أو ملابسات معيَّنة) عندما يرى مَن يعترف به، ضمن مواصفاته، فهو سينفتح عليه، وتلك نتيجة إيجابية تخدم الجميع.

ونحن في مجال مناقشة مفهوم الوطنية العملية.. كثيراً ما نُؤكِّد على مفهوم الوطن، الذي هو الأرض الواحدة والشعب الواحد، فالوطني يعمل من أجل تأكيد سلامة أرض وطنه، ووحدة شعبه.

عندما يتمُّ اعترافٌ من المتحدِّث للآخر، بوجوده وخصوصياته، فيكون الآخر أقرب إلى الاستجابة إليه والتفاعل معه، على ما يجمعهما: كمسألة الوطن وسلامة الوطن، كمسألة الإنسان وسلامة الإنسان، كالأمور العامَّة التي يحتاجها كلُّ أبناء

الشعب، والذي يشعر الجميع بضرورتها.

هذا الشعور بالمسؤولية، والذي أكَّدنا أنَّه يحتاج إلى سَعة الصدر، يحتاج الى كلمة: مُداراة الآخرين.. وَسَعة الصدر التي تكون نتيجة: الشعور بالمسؤولية، هي دائماً مسألة ضرورية لكلِّ حَمَلَة الرسالة الإيمانية والوطنية والإنسانية.

فإنَّ حَمَلَة الرسالة الإيمانية أو الوطنية أو الإنسانية.. وبحسب ما يحملون من ثقافة، يُفرَض أن تكون كلُّ تلك العناصر مجتمعة عندهم، ولكن يمكن أن تختلف من شخص لآخر.

لأنَّ مَن لم يلتزِمْ بكلِّ ما هو مطلوب منه في إيمانه، فذلك يُؤشِّر على خَلَل في سُلوكه، ولهذا يعتقد:

إنَّ الإيمان: هو علاقة ما بين الإنسان وبين ربِّ العالَمين، كما أنَّه علاقة الإنسان بينه وبين الإنسان الآخر، وعلاقة الإنسان بينه وبين الأرض التي يعيش عليها، التي هي الوطن.

يمكن أن يكون هناك إنسان يعيش انتماءه للوطن.. ولكنَّه لم يلتفت إلى ضرورة معايشته للجانب الإيماني، وعدم اهتمامه بالجانب الإيماني في علاقته مع ربِّ العالَمين، نقطة سلبية يجب الانتباه إليها.

كذلك، هناك أشخاص همُّهم: الإنسان فقط.. دون الالتفات إلى مسألة الوطن، ومسألة الإيمان، وهذه أيضاً نقطة سلبية.

نحن دائماً، من مُنطَلَق إيماني نقول:

إنَّ الإيمان لا يمكن أن يفترق عن حُبِّ الوطن.. والإيمان لا يمكن أن يفترق عن ثقافة حقوق الإنسان.. ولهذا الإيمان شيء يجمع الجميع.

ولكن يمكن أن يكون هناك وجهات نظر متعدِّدة نتيجة اختلاف مفاهيم الحضارات، وقِيَم الثقافات في مختلف المجتمعات والبيئات.. اختلافات بين الأشخاص، في مقدار حَمل المسؤولية بكلِّ أطرافها.

وعلى كلِّ التقادير نقول: المطلوب من حامِل الرسالة.. العامل من أجل الوطنية العملية، أن يكون ذا صدر واسع، ويعمل من أجل مداراة الآخرين.

ولهذا نرى: أنَّ أصحاب الرسالات الإيمانية، وعلى رأسهم الأنبياء.. كانوا أكثر الناس، مداراة لشعوبهم، أكثر الناس مداراة للناس.

ولهذا يقول أحد الأقوال المباركة:-

﴿إِنَّمَا الأَنْبِيَاءُ فَضَّلَهُمُ اللهُ عَلَى خَلْقِهِ لِشِدَّةِ مُدَارَاتِهِمْ لأَعْدَاءِ دِيْنِ اللهِ، وَحُسْنِ الْتِفَاتِهِمْ لأَجْلِ إِخْوَانِهِمْ فِي اللهِ﴾

كثيراً ما نُؤكِّد:

إنَّ المطلوب، أن تجتمع الأُمَّة ضِمن الدين الواحد.. وأن تجتمع الأُمم ضمن الديانات السماوية، التي يجمعها الإيمان، وأن تكون هناك أُمَّة أوسع هي: الأُمَّة الإنسانية.. فمَن يشعر بالمسؤولية تجاه وطنه، يمكن أن يكون في شعبه، من أبناء

الإيمان، ولكن هناك في شعبه ممَّن لا يؤمنون بدين سماوي، لذا يجب احتواءُهم.

مع أنَّنَّا أكَّدنا: على أنَّ الإيمان مسألة فِطرية.. وهناك مَن يكتشف هذه الفِطرة، وينسجم معها، ويعمل على ضوئها مستعملاً عقله، وهناك مَن لم يلتفت إلى هذه الفِطرة.

فأصحابُ الرسالة دائماً (وعلى رأسهم الأنبياء) يكونون في سَعة صدر، حتَّى مع الذين هم أبعد الناس عن رسالتهم، وعن ما أُرسِلوا به.. ولهذا وَرَدَ القول:-

﴿إِنَّمَا الأَنْبِيَاءُ فَضَّلَهُمُ اللهُ عَلَى خَلْقِهِ لِشِدَّةِ مُدَارَاتِهِمْ لأَعْدَاءِ دِيْنِ اللهِ﴾

الأنبياء جاءُوا بدين من اللهﷻ.. ولكن مِن الناس، مَن يكون عدوَّاً لهذا الدين.. وقد تعامَل النَّبيُّﷺ مع هؤلاء، بسَعة صدر، لأنَّه يشعر بالمسؤولية تجاههم فالنَّبيُّﷺ جاء رحمة لهم، ومن أجل إصلاحهم.

ولهذا يُفرَض بحامل الرسالة، ألاَّ يُسيء العلاقة ما بينه وبين الآخرين، ويجعل العلاقة دائماً طيِّبة، حتَّى وإنْ كانوا لا يؤمنون بدينه، برأيه، بمعتقده.

مقابل ذلك، كان النَّبيُّ ﷺ يلتفت إلى المؤمنين، التفاتة محبَّة واهتمام ورعاية.

كلُّ ذلك، لأنَّ الأنبياء أصحاب رسالة، ويشعرون بالمسؤولية

تجاه رسالتهم التي بُعثِوا بها، إلى البشرية، إلى الناس، إلى مجتمعاتهم.. فيكون تعاملهم بلِينٍ مع كلِّ الناس، حتَّى لو كانوا أعداء دينهم، أعداء رسالتهم.

ونفس المفهوم يُعطيه الإمام أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام عندما يقول:-

﴿إِنَّ مُدَارَاةَ أَعْدَاءِ اللهِ مِنْ أَفْضَلِ صَدَقَةِ الْمَرْءِ عَلَى نَفْسِهِ﴾

دائماً الصدقة تعني: سلامة الإنسان.. وسلامة الإنسان صاحب الرسالة، ليس شخصه فقط، وإنَّما شخصه ورسالته.. فدائماً الكلمة الطيِّبة حتَّى مع أعداء رسالتك، ممَّا تزيل العقبات أمام الرسالة، والتي أنت تحملها.. سواءً كان من مُنطلَق إيماني، أو من مُنطَلَق وطني، أو من مُنطَلَق إنساني.

بالتأكيد أنَّ الأنبياء هم تلامذة السماء، تلامذة الكُتُب السماوية، والكتاب السماوي (القرآن الكريم)، يُعطي نفس المفهوم في مُداراة الناس في قوله (تعالى):-

﴿....وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً....﴾[1]

بالتأكيد أنَّ كلمة **﴿لِلنَّاسِ﴾** فيها عمومية، يعني ليس لأبناء دينك أو أبناء مذهبك أو طائفتك، أو قوميتك، أو بقية الخصوصيات الأخرى، وإنَّما قولوا للناس جميعاً.

---

[1] سورة البقرة/آية/٨٣.

كذلك من المُؤكَّد: أنَّ الإنسان الذي يريد أن يُتــرجِم الوطنيــة العملية، يكون مســؤولاً عن أبناء وطنه أكثر من غيرهم.. يكــون مسؤولاً عن وحدتهم، وسلامتهم، وتكاتُفهم.. ولهذا بالضرورة تعني الآية: لابدَّ أن تقول لكلِّ أبناء وطنك حُسْناً.. إذا كنتَ ممَّن يريــد أن يُؤكِّد وطنيته العملية.

ولهذا جاء في بعض الأحاديث في معنى ﴿لِلنَّاسِ﴾: أي للناس كلّهم، مؤمنهم ومُخالفهم.. أمَّا المؤمنون، فيبسط لهم وجهه.. وأمَّا المخالفون، فيُكلِّمهم بالمداراة.

وهنا، كأنَّه هناك مسألتين:

المسألة الأولى: الحرص على وحدة الشعب، ووحدة المجتمع، وقوة الوطن.

المسألة الثانية: لابدَّ للإنسان أن يعطيَ دائماً صورة جميلــة عن رسالته، ليس فقط بكلامه، وإنَّمــا لابــدَّ أن يعطيَهــا بكلامــه وسلوكه.. والمُداراة تجمع ما بين الكلام والسلوك، ما بــين اللفــظ والمعاملة.

وبالتأكيد أنَّ الأحاديث الشريفة، مُنطلَقُهــا مُنطلَــق إيمــاني، (فالأنبياءُ يتكلَّمون عن ربِّ العالَمين)، فهي تُؤكِّد علــى أنَّ ثلاثــة أمور تتوفَّر عند الإنسان صاحب الرسالة، صاحب المهمَّة، ضــمن كلِّ التوجُّهات:

أولاً: لابدَّ أن يكون مُطَبِّقاً لرسالته.. يعمل من أجل تجســيدها

في سلوكه وعمله، ومن ثمَّ يُبلِّغها للآخرين.

ثانياً: لابدَّ أن يكون صورة طيِّبة لرسالته.. وإلى هذا المقطع، يُشير الإمام جعفر بن محمَّد الصادق(عليه السلام)، حين يقول لمواليه، لأتباعه:-

﴿كُونُوا لَنَا دُعَاةً صَامِتِينَ﴾

ثالثاً: ضرورة الحِلم.. الذي يُفرَض أن يكون: نتيجة سَعة الصدر.

الحديث يقول: إذا لم يستجمِع حامِلُ الرسالة، هذه الشروط، كأنَّه لم يحمل رسالته، وليس له عمل.

لأنَّ الإنسان الذي يحمل رسالة، ويريد أن يُقدِّم العمل المُخلِص.. لابدَّ أن يستجمِع في داخله وفي نفسه، ما يُمكِّنه من حَمل الرسالة وتبليغها، سواءً كانت الإيمانية أو الوطنية أو الإنسانية، فهذه الأمور الثلاثة لابدَّ أن يستجمعها.

﴿ ثَلاثٌ مَنْ لَمْ يَكُنَّ فِيْهِ لَمْ يَتِمَّ لَهُ عَمَلٌ: وَرَعٌ يَحجُزُهُ عَن مَعَاصِي اللهِ، وخُلُقٌ يُدَارِي بِهِ النَّاسَ، وَحِلمٌ يَرُدُّ بِهِ جَهْلَ الجاهِلِ﴾

المُنطلَق: إيماني.. ولكنَّه ينطبق على كلِّ الظروف، لحَمَلة رسالة:-

﴿وَرَعٌ يَحجُزُهُ عَن مَعَاصِي اللهِ﴾

يعني: التزام بالقانون.

﴿وخُلُقٌ يُدَارِي بِهِ النَّاسَ﴾

أي: كلُّ الناس.

﴿وَحِلمٌ يَرُدُّ بِهِ جَهْلَ الجاهِلِ﴾

ولهذا نرى أنَّ الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) تأكيداً لوحدة الأُمَّة، وتعاون الشعب والأُمَّة والإنسانية يقول:-

﴿ثَمَرَةُ العَقْلِ مُدَارَاةُ النَّاسِ﴾

من أجل تشكيل أُمَّة مُتآخية سواءً في الدين الواحد، أو من أبناء الديانات، أو الأُمَّة الإنسانية.

دائماً المُداراة نتيجتها: التعارف، التعلُّق بشكل عام إلاَّ ما خرجَ بدليل أو بظروف معيَّنة، ولهذا الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) يُؤكِّد ذلك ويقول:-

﴿دَارِ النَّاسَ تَستَمتِعْ بِإِخَائِهِمْ، وَالْقَهُمْ بِالبِشْرِ تُمِتْ أضْغَانَهُمْ﴾

بمقدار ما تداري الناس، يمكن أن يعاملوك بِأُخُوَّة، وبالأَخص إذا كُنتَ بَشوشاً معهم.. فالبشاشة دائماً تُذهِب ما في قلب الآخرين من سلبيات إن وُجِدت.

بعد ذلك، الذي يريد أن يعمل من أجل وطنية عملية، لابدَّ أن تكون علاقته مع الآخرين جيِّدة، وعلاقة الآخرين معه جيِّدة، ليس فقط من أجل سلامة نفسه، وإنَّما من أجل سلامة المجتمع، وسلامة الشعب، كلُّ ذلك له تأثير على سلامة الوطن.. ولهذا يقول الإمام عليٌّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ):-

﴿دَارِ النَّاسَ تَأمَنْ غَوَائِلَهُمْ، وَتَسلَمْ مِنْ مَكَائِدِهِمْ﴾

يعني: مُداراة الناس تُسبِّب دفع مكائدهم ودفع غوائلهم، وكأنَّ المُداراة لا تُعطِيهم حُجَّة على ما يحملون في دواخلهم من غوائل أو مكائد من أجل تطبيقها.. وبذلك تحفظ نفسك، تحفظ مجتمعك، تحفظ شعبك، وتُقوِّي وطنك.

هناك مفردة، على بساطتها.. ولكنَّها مُهمَّة في ثقافة الوطنية العملية.. وضمن المُنطلَق الإيماني والإنساني.. وبالنتيجة يكون للوطن، الإيجابية في الوطنية العملية، هي: (تأكيد المَحبَّة الروحية فيما بينك وبين الآخرين).. وكما أنَّ المُداراة مطلوبة، لكنَّ المحبَّة الروحية مطلوبة أيضاً، ولهذا وَرَدَ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم:-

﴿إنْ أَحْبَبْتَ شَخْصاً فَقُلْ لَهُ: أَنِّي أُحِبُّكَ﴾

عندما تقول له: إنِّي أُحبُّك، تصدر من قلبك بدون تصنُّع، بالتأكيد سيكون لها آثار إيجابية في نفس الآخر، ويمكن أن يقابل هذه المَحبَّة، بمَحبة، فإن كان في نفسه شيء سلبي، يمكن أن يزول هذا الشيء أو يضعف.

من هنا نأتي وبإيجاز، إلى أهمِّيَّة مفردة (**الدعاء**) في تأكيد العلاقة الروحية ما بين أبناء المجتمع.. فالغالبية يؤمنون بالغيب، ويؤمنون بالدعاء أو الصلاة، وخصوصاً إذا كانوا أبناء ديانات سماوية.. ولأهمِّيَّة الدعاء، وتأثيره في تكاتُف الإنسان مع أخيه الإنسان، نرى أولاً: أنَّ الله جل جلاله أَمَرَنا بالدعاء، لنا ولغيرنا، وقوله (تعالى):-

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ.....﴾[١]

عامّ، سواءً الإنسان لنفسه، أو لغيره.

وكذلك نرى تأكيداً في الدعاء للغير:-

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ....﴾[٢]

بمعنى: لولا دعاؤكم فيما بينكم، وبعضكم للبعض الآخر.. ولهذا من المفيد، ضمن ثقافة الوطنية العملية، إدخال الجانب الروحي وتحفيزه، والذي يكون بدايته الدعاء يعني: طلب الخير للآخر.

---

[١] سورة غافر/آية/٦٠.

[٢] سورة الفرقان/آية/٧٧.

الفصل الأَوَّل

المبحث الرابع

الرَّأْيُ.. كَلِمَة

الرَّأْيُ.. كَلِمَة

إنَّ مسألة طرح الرأي والاستماع إلى رأي الآخـــر.. مســـألة وطنية ضرورية.. هنا، لابدَّ أن نلتفت دائماً إلى الفَرْق ما بين الثقة بالنفس، والغرور.

إِنَّ الإنسان يعيش درجة من درجات الثقة بـــالنفس، فـــدائماً تكون من أسباب تكامله، ومن أسباب تعلُّمه، ومن أســـباب نجاحـــه في الإيجابيات التي يمتلكها.

لكن الفارق ما بين الثقة بالنفس، وكلمة الغرور، ربَّما يكـــون غير واضح عند البعض.. ونقول من أجل التقريب، للفرق ما بـــين الثقة بالنفس والغرور: الواثق بنفسه يطرح رأيه من دون إصـــرار ولا تعنُّت، ولا مع تخطِئَة الآخرين.

بينما الإنسان المغرور يعتقد أنَّ غروره هـــو ثقـــة بـــالنفس، ويكون رأيه يجمع بين الإصرار والتعنُّت وتخطِئَة الآخرين، فهو لا يرى إلاَّ رأيه، ولا يتصوَّر أَنَّ هناك رأياً صحيحاً آخر.. وكأنَّه نتيجة غروره، يُخَطِّئ الآخرين جميعاً، ويُخطِّـــئ آراءهـــم، ولا يريـــد أن يستوعب إلاَّ ما تبنَّاه.

والحال، مسألة الاستماع إلى رأي الآخرين، مسألة أساســـية: على الصعيد الإيماني والوطني والإنساني.. فمَن الذي يستقبل رأي

الآخرين؟...

*هو: صاحب الثقة بالنفس وليس المغرور.. ولهذا الفَرْق الآخر ما بين صاحب الثقة بالنفس، والمغرور:

إنَّ الواثق بنفسه.. إذا استمع إلى رأي الآخرين، وكان رأي أحدهم أكثر فائدة للوطن، من رأيه.. أَكَّد أفضلية وأحسنية الرأي الآخر، ولا يرى موقفه هذا، تقليلاً أو ضعفاً فيه.

بعكس المغرور.. عندما يستمع إلى الرأي الآخر، لا يقبله، وإن اعتقد أنَّه أفضل، وإن رآه أنَّه أحسن.. لأنَّه يرى الإقرار بصِحَّة موقف الآخر ما هو إلاَّ تقليل لشأنه.

ولهذا نحتاج دائماً إلى إبداء الرأي، ونكون واثقين بأنفسنا وبما نطرحه.. فمَن لا يثق بنفسه لا يُعطي رأياً، ولهذا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول:-

﴿ قَوْلُ: لاَ أَعْلَمُ، نِصْفُ الْعِلْمِ﴾

فليس المطلوب من الإنسان، أن يُعطيَ رأياً في كلِّ شيء، وإنَّما يُعطي رأياً فيما يعرف نتيجة تعلُّم، نتيجة خِبرة، نتيجة دراسة، نتيجة ممارسة.. وأمَّا إذا لم تكن لديه كلُّ هذه الأمور، فعدم إعطاء الرأي أفضل من إعطائه، لأنَّه سيُعطي رأياً لا يثق بسلامته.

وضمن هذا المفهوم الإنساني الوطني، للرأي والرأي الآخر، يقول الإمام عليُّ بن أبي طالب عليه السلام:-

﴿مَنِ اِسْتَقْبَلَ وُجُوهَ اَلآرَاءِ عَرَفَ مَوَاقِعَ اَلأَخْطَاءِ﴾

يعني: أنَّ الإنسان يعرف مواقع الأخطاء، بمقدار استماعه لرأي الآخرين.

أمَّا إذا كانت أُذنه صمَّاء عن آراء الآخرين ويستبدُّ برأيه، ولا يسمح للآخرين أن يناقشوه في طرْح وجهات نظره.. فيكون إنساناً ديكتاتورياً، ودائماً الديكتاتوري ليس وطنياً.

الإنسان (بحدِّ ذاته) ليس مغروراً.. ولكن نتيجة لظروف مكان وزمان معيَّن، ونتيجة لعدم تربيته لنفسه.. يحصل لديه الغرور، للأسباب التالية:

السبب الأول: المجتمع.. وهذا الجانب له دخل كبير في مفهوم الوطنية العملية، وعدم استحداث الديكتاتوريات الجديدة.

-كيف أنَّ المجتمع سَبَب للغرور؟!...

الجواب: عندما يُبدِي رأيه، من مركز مُعيَّن ومنصب مُعيَّن، وقد رفع شعار الديمقراطية.. إذن المطلوب من المجتمع، من الشعب أن يناقشوه، أن يحاوروه، أن يُخطِّئُوه، أن يُصحِّحوا له، وليس يتعاملون معه، على أساس أنَّهم لا رأي لهم.

خصوصاً مع وجود نظام، يطرح الديمقراطية شعاراً له، ويعتمدها في عمله.. فلابدَّ لهذا الإنسان أن يتحاور ويستمع إلى الرأي الآخر.. ولكن عندما يكون المجتمع، والأوسع من ذلك الشعب، لا يحاوره، لا يُجيبه، لا يُخطِّئُه.. بعد فترة، يعيش هذا الشخص درجة من درجات الغرور.. فالغرور يبدأ صغيراً وينمو،

كلَّما يرى أنَّ الآخرين لا يُخالِفونه في رأي، ولا يناقشونه في مسألة، ولا يُحاورونه بخطَّة.. عند ذلك ينمو لديه الغرور.

السبب الثاني: الإنسان الذي يحمل هدفاً من كلامه..

فنرى الكثير من أفراد المجتمع والشعوب تتكلَّم عن الذي يحمل الهدف من كلامه، صاحب الرسالة، صاحب الرسالة الوطنية، صاحب الرسالة الإيمانية، صاحب الرسالة العلمية، صاحب الرسالة الإنسانية.. فهذا دائماً يحمل الهدف في كلمته وكلامه، ويعمل من أجل الوصول إلى الهدف الذي فيه صالح المجتمع، صالح الشعب، صالح وطنه، من أجل أن يُجسِّد وطنيته العملية.

ولكن مَن لا يحمل رسالة هادفة بمفهومها العملي.. فإنَّه يحمل رسالة شفهية، ظاهرية، كلامية، لفظية، شعاراتية.. وهذا الإنسان ستكون الدنيا وما فيها، هي همُّه، هي غايته، هي هدفه.

وعندما تكون الدنيا هدفه، وقد حصل عليها نتيجة ما طرحَ من شعارات كاذبة، غير صادقة، وحصل على الكثير من مكاسب الدنيا، سواءً من مال أو سلطة أو جاه أو أي شيء آخر.. عند ذلك يأخذه الغرور، مُعتقِداً أنَّه حقَّق لنفسه ما يريد.

إلى هذا المعنى يُشير الإمام عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام بضرورة أخذ الرأي من الإنسان صاحب الرسالة، المسؤول عن كلمته:-

﴿الرَّأيُ كَلِمَةٌ﴾

إذن الكلمة مقدَّسة.. فلابدَّ أن يكون رأي الإنسان نابعاً من

رسالته، من الواقع، وهذا تأكيد للرسالة الوطنية بشكلها العملي، والتي لا يمكن أن تنفصل بحسب مفهومنا عن الرسالة الإيمانية، والرسالة الإنسانية.

فقد سُئل أمير المؤمنين عليه السلام: أيُّ الناس أثبت رأياً؟!... قال:- **﴿مَنْ لَمْ يَغُرَّهُ النَّاسُ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَمْ تَغُرَّهُ الدُّنْيَا بِتَشْوِيقِهَا﴾**

فالإنسان صاحب الرأي الثابت يجب أن تتوفَّر فيه الأمور التالية:

الأمر الأول: يُشترَط ألاَّ يغرّه المجتمع والشعب.

الأمر الثاني: يبقى صادقاً مع رسالته.. صادقاً في وصوله إلى هدفه (سلامة الوطن، والوصول إلى وطنية عملية) عند ذلك يُصبِح قُدوة لغيره، ومَحَطّ احترام الآخرين له.

هذا الإنسان عندما يُعطي الرأي بغير تعنُّت فيه، بينما المغرور يرى نفسه، ولا يرى هدفه، يرى صالحه، ولا يرى صالح شعبه ووطنه.

دائماً الذي يعمل من أجل صالح الإنسان الآخر، وصالح شعبه وأرضه.. هذا الإنسان تكون من صفاته: الرحمة.

فكلُّ مَن يعمل من أجل الآخرين، فرداً ومجتمعاً وشعباً، مِن دون منافع شخصية، أو حزبية، أو فِئوية.. يعني: أنَّه يحمل الرحمة.

فالرحمة دائماً تكون نتيجة المَحبَّة، فالحُبُّ.. مرة: يُفعِّل الإنسان، ومرة: لا يُفعِّل الإنسان.

عندما يُفعِّل الحُبُّ الإنسانَ: ينتج منه رحمة.. ولهذا يكون الإنسان رحيماً في كلِّ عمله من أجل الصالح العام، أن يكون كلُّ ما يُقدِّم من أجل صالح شعبه ووطنه.. وهذه صفة أصحاب الرسالات، وعلى رأسهم الأنبياء والمرسَلين، وعلى رأسهم الرسول محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم فعندما ساوموه على رسالته، بمالٍ ومُلْكٍ وشهوات.. كان جوابه:-

﴿وَاللهِ، لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي مَا تَرَكْتُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ، أَوْ أَهْلِكَ دُوْنَهُ﴾

لأنَّه:

أولاً: مبعوث من قِبَل السماء، من قِبَل ربِّ العالَمين.

ثانياً: من صفاته: **﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾**[1] هذا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعيش معاناتكم، آلامكم، فتَقُضّ مضجعه.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾: الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يُحبُّ الإنسان.. كما أنَّ الله تعالى يحبُّ الإنسان، ولولا محبَّة الله تعالى للإنسان لَما خَلَقه.

إذن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم لابدَّ أن يُحِبَّ الإنسان، ونتيجة هذا الحُبُّ يكون: **﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾**.. ولهذا أرسله الله تعالى رحمة

---

[1] سورة التوبة/آية/١٢٨.

للعالَمين جميعاً، للبشرية جميعاً، للناس جميعاً.

دائماً، مَن يريد أن يُصيِّر وطنيته، وطنية عملية.. لابدَّ أن يكون رحيماً مع الآخرين، من أجل أن يكون عنصراً إيجابياً بين شعبه، وعنصراً إيجابياً للآخرين.. أمَّا إذا لم يكن رحيماً، فيكون فظَّاً غليظاً، فلا يألف الناس ولا يألفونه.

ولهذا من خصائص النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه كان رحمة للعالَمين، وكذلك مَن معه، ومَن يعمل بهَدْيه وشريعته وأخلاقه وسُنَّته، لابدَّ أن يكون رحيماً.. ولهذا من صفات مَن معه من المِؤمنين الرِّساليين ﴿رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾[1].

فمرَّة: القرآن يصف الأشخاص المؤمنين الصادقين الذين مع رسول الله محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾.

ومرَّة: يصف عيسى عليه السلام ومَن معه:-

﴿....وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً....﴾[2]

وبالنتيجة المطلوب دائماً: الرأفة والرحمة في تعاملنا مع الآخرين.

والمطلوب من أفراد الشعب بشكل عام أن يوصي بعضهم بعضاً بالرأفة والرحمة.. من أجل أن يتمكَّنوا من تجسيد الوطنية العملية لهم، ولهذا نرى الآية الكريمة تقول:-

---

[1] سورة الفتح/آية/٢٩.

[2] سورة الحديد/آية/٢٧.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾[١]

مفردة الرحمة: أساسية في بناء الوطن بشكل سليم.. في بناء إنسان الوطن، وفي بناء أرض الوطن، وفي بناء مجتمع الوطن وشعب الوطن.

بعد أن نُرسِّخ أهمِّيَّة الرحمة في الثقافة الوطنية، كما هي في الثقافة الإيمانية.. ستكون حالة متبادلة بين أفراد المجتمع، وما بين أبناء الشعب، وتكون عُرْفاً مجتمعياً.. إلى هذا المعنى يشير الإمام عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام:-

﴿أَحْسِنْ، يُحْسَنُ إِلَيْكَ﴾

وكذلك:-

﴿اِرْحَمْ، تُرْحَمْ﴾

عند ذلك، يكون هذا: خُلُق يُتبادَل به بين أفراد المجتمع.

الرحمة مطلوبة ما بين كلِّ أفراد المجتمع، بكلِّ طبقاته.. ولكنَّها مطلوبة بشكل أوضح وأكثر تأكيداً: عند السيطرة على الآخر والتحكُّم به، عند القدرة على الآخر، ليس هناك ضرورة أن تكون السيطرة، نتيجة قوة ومنصب كبير.

ولكن كلُّ مدير في أيِّ دائرة، يكون لديه مجموعة من الموظَّفين، يكون المدير أعلى منهم، وفوقهم رتبة.. بالتأكيد،

---

[١] سورة البلد/آية/١٧.

المطلوب منه، كما المطلوب منهم.. أن يُـؤَدُّوا واجـبهم الـوطني والإنساني بأحسن صورة، خدمةً للوطن وللشعب.. ولكـن هـذا لا يعني: أنَّه يتأمَّر عليهم، هذا لا يعني: أنَّه يُذِلُّهم، هذا لا يعني: أنَّـه يؤذيهم، هذا لا يعني: أنَّه يُرضِي ما في داخله من نـواقص، عـن طريق سيطرته على الآخرين.

ولهذا يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ضمن هذا المجال:-

﴿عَجِبْتُ لِمَنْ يَرْجُو رَحْمَةَ مَنْ فَوْقَهُ، كَيْفَ لاَ يَرْحَمُ مَنْ دُونَه﴾

فبالتأكيد أنَّ هذا المدير (كما في المثال) هناك مَن هـو أعلـى منه، يكون قادراً على أذاه إن أراد ذلك، فكما يرجو المدير رحمـة مَن فوقه، لابدَّ أن يرحم المديرُ مَنْ دونه.

فالرحمة ضرورية ما بين أفراد المجتمع وأبناء الشعوب.

هنـاك حديـث للنَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: يحـاول أن يُوقِظ في الإنسـان، إنسانيته والتي جزء منها الرحمة وحُبُّه للآخرين، كما يقول:-

﴿ارْحَمْ مَنْ دُونَكَ يَرْحَمْكَ مَنْ فَوْقَكَ، وَقِسْ سَهْوَهُ بِسَهْوِكَ وَمَعْصِيَتَهُ لَكَ بِمَعْصِيَتِكَ لِرَبِّكَ، وَفَقْرَهُ إِلَى رَحْمَتِكَ بِفَقْرِكَ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾

يجب أن يضع الإنسان واقعه أمامه، حقيقته أمامه، أن يضـع نصْبَ عينيه كلّ ما قام به في الليل والنهار.

فهو دائماً يقول: (يا الله)، دائماً يقول: (يا ربّ)، دائماً يحـاول أن يستعين بالله، دائماً يحاول أن يطلب الرحمة من ربِّ العـالَمين،

وبذلك يتعلَّم كيف يرحم مَن يتمكَّن منه من خَلق الله.

وبالنتيجة: الضمان الإلهي، باعتباره أرحم الراحمين، رحمن الدنيا والآخرة، فهو يرحم، مَن يرحم عباده، وبالتأكيد أقرب العباد للإنسان، أبناء شعبه وهم أَوْلَى بالرحمة والتراحم فيما بينهم.

ولهذا يقول الحديث الشريف:-

﴿الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

ويقول:-

﴿ارْحَمْ مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكَ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾

هذا الحديث وَرَدَ بعدَّة صيغ، وَرَدَ عن نبيِّ الله عيسى بن مريم(عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ)، وَوَرَدَ عن النَّبيِّ الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم).

بالتأكيد أنَّ المطلوب من الإنسان الرحمة لأخيه الإنسان بشكل أساسي، وبعدها الرحمة لكلِّ شيء من عناصر الطبيعة.

فقد وَرَدَ في بعض الأحاديث:-

﴿مَنْ رَحِمَ، وَلَوْ ذَبِيحَةَ عُصْفُورٍ، رَحِمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

كلُّ ذلك، من أجل تأكيد الرحمة عند الإنسان، وأن يكون تصرُّفه مع الآخرين برحمة، ويكون تعامله في تقديم رأيه للآخرين بكلِّ أريحية فيما يخصُّ الأمور الحياتية المشتركة بينه وبين أبناء وطنه.. وعند ذلك يمكن له أن يُجسِّد الوطنية العملية بأنصع صورها الواقعية.

الفصل الأَوَّل

المبحث الخامس

النَّفْسُ تُزَكَّى.. بِالْمُحَاسَبَةِ

النَّفْسُ تُزَكَّى.. بِالْمُحَاسَبَةِ

منذ بواكير الحضارة الإنسانية تناول الفلاسفةُ والمُفكِّرون والمثقَّفون بَحْثَ موضوع الأخلاق وارتباطها بالسلوك البشري.

كما أكَّدت الرسالات السماوية المتعاقبة على هذا الموضوع، لأنَّ الأخلاق تُعتبَر العنصر الذي يُحرِّك الإنسان ويحكم تصرُّفاته ويضبط سلوكه في مُعتَرَك الحياة البشرية.. فعندما تكون أخلاق الإنسان ناضجة ومستقيمة تكون حياة الإنسان راقية ومزدهرة والعكس صحيح.

لقد وجدنا من المفيد أن نتعمَّق في هذا الموضوع عن طريق الرجوع الى مُؤلَّفِنا: (تربية النفس) ونقتبس منه ما هو مناسب مع مُتطلَّبات البحث في موضوع الأخلاق وارتباطها بالسلوك الاجتماعي وكما جاء في الصفحات (٧-٢٦) من ذلك المُؤلَّف:

كان آخر حديثنا عن النفس وعن الآية المباركة في قوله تعالى في سورة الفجر/آية/(٢٧-٣٠):-

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ*ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً*فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾

وأعطينا وجهين للآية المباركة:

الوجه الأول

الخطاب إلى النفس المطمئنَّة في الحياة الدنيا.. وأمَّا معنى كلمة ﴿ارْجِعِي﴾ فهو رجوع إلى الآخرة، أي: حالة الرضا من العبد في رجوعه إلى ربِّه، وتكون النتيجة:

هذه النفس تكون مَرْضِيَّة عند الله ﷻ وتدخل في عباده وتدخل جنَّته.

الوجه الثاني

إنَّ هذه النفس المُطمئنَّة هي النفس الموجودة في عالَم الذَّرِّ في الوقت الذي أخذَ الله ﷻ منها الميثاق وأودع فيها الفِطرة.. أمَّا معنى كلمة ﴿ارْجِعِي﴾ فهو الرجوع إلى أمر الله وتشريعه، والرجوع إلى منهج الله والرضا الكامل بأوامر الله ﷻ، التسليم التامّ له، الرضا بالأوامر والتسليم للقضاء، وهذا الرضا وهذا التسليم يُدخِل العبد (الإنسان) في معنى العبودية الكامل لله ﷻ ويكون فعلاً من عباد الله، وإذا كان تَسلَّكَ بهذا السلوك، فستكون النتيجة.. الجنَّة مأواه ومأمنه.

وكانت هذه الرحلة مع النفس ضمن الآيات المباركة ومحاولة لمعرفة شيء عنها.

وقلنا سابقاً وأقول الآن: من أنَّها هي صياغة ربَّانية محفوفة

بالرحمة لهذه النفس.. عرَّفها الفجور للتخلِّي عنه، وعرَّفها التقوى لتمتلِئَ منها، وجعلها رقيبة على الإنسان، بأن جعلها نفساً لوَّامةً.. تلومه في حالة المعصية والخطأ، وتلومه في حالة التقصير، وتلومه في حالة توجُّهه إلى الله لِيصلَ إلى الدرجات التكاملية.

إلاَّ أنَّه مع كلِّ هذا، هي نفس معرَّضة للخطأ، معرَّضة للزلل، معرَّضة للانحراف، معرّضة للمعصية، معرَّضة للابتعاد عن اللهﷻ فكراً وسلوكاً، قِيَماً ومفاهيم ولهذا قالت الآية المباركة من سورة الشمس/آية/(٩-١٠):-

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾

المحاسبة.. أول مراتب تزكية النفس:

أول مراتب التزكية: هو أن يستعمل نفسَه لما خُلِقتْ له، ويتعامل مع نفسه بالشكل الذي خَلَقَها اللهﷻ بعد أن أخذ منها الميثاق وأودع فيها الفِطرة، وهذا لا يكون إلاَّ في حالة مراجعة النفس بشكلٍ دائم، وهذا لا يكون إلاَّ بمراقبة النفس بشكلٍ مستمرٍّ، وهذا لا يكون إلاَّ بمحاسبة النفس حساباً دقيقاً، وأن لا يَدَعَ النفس من دون محاسبة، ومن دون مراقبة، ومن دون التفاتٍ كاملٍ.

لأنَّ هناك شيطان، والشيطان يحاول أن يُغرِيَه ويحاول أن يُوقِعَ به، وهذا الشيطان هو قرين للإنسان.

ولأجل وجود الشيطان، فالإنسان إن استقام وتمكَّن من نفسه،

يكون قد أفلح ويكون قد استحقَّ ما عند اللهﷻ من ثواب ومن أجر.

فلو لم يكن هناك شيطان، لكانت النفس نفساً ملائكيةً لا تُخطِئ ولا تعصي، ولكن باعتبار هذا القرين صارت النفسُ مخيَّرةً، وصارت تستحقُّ الثواب والجنَّة، وتستحقُّ العقاب والنار.

إذن، فتحتاج النفس وبشكلٍ دائمٍ مستمرٍّ إلى حالة المراقبة وحالة المحاسبة للنفس.. والنَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يقول:-

﴿حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا﴾

إذن، فلابدَّ للإنسان أن يحاسب نفسه في الدنيا قبل أن يقف بين يدي اللهﷻ ويحاسبه الله.

واللهﷻ يقول كما في سورة البقرة/آية/٢٨٤:-

﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾

إذن فهناك حساب بين يدي اللهﷻ سواءً لِمَا أبدينا أو ما أخفينا.

حساب ما أبدينا وما أخفينا:

ما أبديتُم من قول وعمل، لأنَّ الآية تقول:-

﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾

يعني الحساب أولاً يكون: على ما ظهر.. على القول الذي نطقت به، كان في نفسك ثم نَطقْتَ به.

وعلى ما عملْتَ، كان في نفسك أولاً، ثم عملْتَ به.

فمرَّةً تكون (مسائل لفظية قولية) مثلاً: غيبة، نميمة، بهتان، افتراء، تهمة، تشويه.. هذا قول.

ومرَّةً (عمل) مثلاً: سرقة، قمار، زنا، وبقية المُحرَّمات الأخرى.. تكون في النفس ويُبدِيها الإنسان خارجاً.

﴿أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾

الأمور الظاهرة سواءً كانت من قول أو فعل أو عمل يُحاسَب عليها الإنسان، وكذلك الأمور التي يُخفيها.

وهنا، يدخل الجانب العقائدي وبعض الجوانب النفسية (والجوانب العقائدية، هي مشاكل الإيمان وما شابه وشاكل ذلك).

فلو أنَّ شخصاً يُظهِر الإيمان، ولكنَّه يُخفِي عدم الإيمان في نفسه، فالله يُحاسِبه على ما في نفسه، على ما في داخله.. ولو نحن نتعامل معه على أساس ما يتلفَّظ به وما يُظهِره، على قاعدة:-

﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾[1]

ولكن الله ﷻ لا يتعامل معه على هذا الظاهر، ولكن يتعامل على ما في نفسه عندما يقف ما بين يديه (سُبْحَانَهُ وتَعَالَى)، يتعامل معه على ما أخفاه في نفسه، هذا بالنسبة للجوانب العقائدية.

وكذلك في الجوانب الأخرى، كأن يكون (ظنّ السَّوء).. فلو أنَّ شخصاً ظنَّ سوءً بآخر مؤمن، فقد أَثِمَ.. ولو أنَّه لم يعمل شيئاً

[1] سورة النساء/آية/٩٤.

ولكن ظنّه السَّوء، حمَّله الإثم!!... من دون أمارةٍ قد ظهرت ممَّن ظنَّ به، لأنَّهم وكما في سورة النجم/آية/٢٨:-

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً﴾

هذا أولاً، فالآية تشمل الأعمال غير السليمة، الأعمال المحرَّمة سواءً كانت قد أُبدِيت أو لم تُبْدَ.

وتشمل ثانياً: الأعمال السليمة، الأعمال الصالحة.

﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾

فإذا كان في نفسك عمل صالح، وأبديتَه بقولٍ صالحٍ وبكلمةٍ طيِّبةٍ وبإصلاحٍ وبوعظٍ وبإرشادٍ وبتوجيهٍ، أو فعلتَ عملاً سليماً صالحاً، كالسعي في قضاء حوائج الإخوان وعيادة المريض وما شابه وشاكل ذلك من الأعمال الصالحة، والتي لها مظهر خارجي..

فالله ﷻ يحاسب العبد عليها، أو ما أخفى من أعمالٍ صالحة كان بِودِّهِ أن يعمل كذا، وكان ينوي أن يعمل كذا.

هنا، الحساب يكون أيضاً درجات، لأنَّه إذا كان بِودِّه ولم يفعل، لتهاونٍ منه.. فهذا دليل على سلامة الداخل، لأنّ داخله نظيف وكان يَوَدُّ أن يعمل العمل الصالح، فيُثاب على قَدَر ذلك.

ولكن إذا كان ينوي أن يعمل، ولكن لم يتمكَّن أن يعمل فله تمام الثواب!!... عندما يحاسبه الله ﷻ يُعطِيه تمام الثواب، وهذا هو الفرق بين الحَسَنَة وبين السَّيِّئَة.

السَّيِّئة إذا كان لها وجود خارجي ونَوَاها الإنسان ولم يعملْها، لم تُحسَب عليه!!...

والحَسَنة إذا كان لها وجود خارجي ونواها الإنسان، ولم يتمكَّن أن يعملها، تُكتَب له!!...

سرعة الحساب الإلهي:

﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾

فحسابه لا يحتاج إلى زمن ولا يحتاج إلى وقت، لماذا؟!...

لأنَّ الشاهد هو الحاكم!... وكما في قوله تعالى في سورة النساء/آية/٣٩:-

﴿وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبَاً﴾

لأنَّه هو العدل.. فهو سريع الحساب، بل وهو أسرع الحاسبين!... كما في قوله تعالى في سورة الأنعام/آية/٦٢:-

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحَقِّ أَلاَ لَهُ الحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِينَ﴾

بعد أن انتهت الحياة الدنيا رُدُّوا إلى الله، وأكيد هذا الرَّدّ، كان ليس باختيارهم، ولهذا تقول الآية:-

﴿رُدُّوا إِلَى اللهِ﴾

ولكن إذا كان قد عملَ صالحاً في الحياة الدنيا يعود كما يقول الحديث:-

﴿يَعُودُ كَالْغَرِيبِ، إِذَا رَجَعَ إِلَى وَطَنِهِ فَرِحَاً مُسْتَبْشِراً﴾

وإذا كان بعيداً في الحياة الدنيا عن الله، فكما يقول الحديث:-

﴿ يَعُودُ كَالْعَبْدِ الآبِقِ يُرَدُّ إِلَى مُولاَهُ قَسْرًا﴾

نعود إلى الآية الكريمة:-

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحَقِّ﴾

هنا ﴿الحَقِّ﴾ من أسماء الله تعالى والحقُّ مقابل الباطل، فعندما كانوا في الحياة الدنيا كان هناك لهم مَوَالٍ متعددة!...

فكان مولاه المال، وكان مولاه الجاه، وكان مولاه الجنس، وكان مولاه الشهوة، وكان مولاه الغرائز، وكان مولاه الدنيا!..

أمَّا هنا، فقد رُدُّوا إلى الله مولاهم الحقُّ، أولئك كلّها كانت باطلة.. أما هنا رُدُّوا إلى مولاهم الحقّ ﴿أَلاَ لَهُ الحُكْمُ﴾.

لماذا؟... لأنَّه مالك يوم الدين، والحُكم لله في الدنيا وفي الآخرة، والأمر لله في الدنيا وفي الآخرة.

ولكن هنا مرة أن تكون استجابة والنفس مستقيمة، ومرة أن تحرف نفسك ولم تتمَّ الاستجابة، ومرة أن تتبع هواك ولم تتمَّ الاستجابة، ومرة أن يقودك شيطانك ولم تتمَّ الاستجابة، أمَّا هناك فليس مفر منه إلاَّ إليه.

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحَقِّ أَلاَ لَهُ الحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِينَ﴾[1]

---

[1] سورة النساء/آية/٩٤.

له الحكم، لأنَّه مَلِك ذلك اليوم، ومالك ذلك اليوم، وهو الحاكم في ذلك اليوم، والآمر في ذلك اليوم، والكلُّ عبيد، والكلُّ خاشعون، وكما يقول تعالى في سورة الحج/آية/٢:-

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيْدٌ﴾

يوم الوقوف ما بين يدي اللهﷻ والسؤال والجواب، يوم وكما في سورة التكوير/آية/١٠:-

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾

يوم تتكلَّم فيه الأعضاء، والجوارح تشهد، يتكلَّم المكان ويشهد، يتكلَّم الهواء ويشهد!... وكما في سورة الإسراء/آية/١٣:-

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾

وكما في سورة عبس/آية/٣٧:-

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيْهِ﴾

وكما في سورة عبس/آية/(٣٤-٣٦):-

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾

الحكم بيد الله.. الأمر كلُّه بيد الله وعند ذلك الله:-

﴿هُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِينَ﴾[1]

لأنَّ العلم الإلهي لا يحتاج إلى تحضير!... فعلمه بالمستقبل

[1] سورة النساء/آية/٩٤.

كـــعلمه بالحاضر والماضي، فالشـــريط كلُّه واضح أمامه، بصورة جَلِيـــَّة، بصـــورة واضحـــة، بصورة كـــاملة لا غبـــار فيهـــا ولا تشويش، ولهذا يكون أسرع الحاسبين، سريع الحساب، ولهذا يقول (سُبْحَانَهُ وتَعَالَى) كما في سورة الغاشية/آية/(٢٥-٢٦):-

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾

يعني لابدَّ أن يعودوا إلينا، لابدَّ أن يرجعوا إلينا.. هل يتصوَّر الإنســـان أنَّه لا يموت؟!... هل يمكن أنَّه لا يموت؟!... إذن أيـــن الآباء وأين الأجداد؟!...

إذن، لابدَّ مـــن موت، وإذا كـــان لابدَّ مـــن موت، فلابدَّ مـــن الرجوع إلى اللهﷻ:-

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾

فلا مفر منه إلاَّ إليه، هذه البداية، يقول اللهﷻ:-

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾

فإذا كان (إنَّ إلينا إيابهم)، تكون النتيجة:-

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾

فلابدَّ أن يقفـــوا بين يدي اللهﷻ ويُحاسَبوا على كـــل ما قالوا وما فعلوا، ما أبدوه وما أخفوه.

لقاؤنا بالله.. في الدنيا قبل الآخرة:

ومـــا دام لابدَّ مـــن الرجوع إلى اللهﷻ بعد الموت لأجـــل أن يحاسبَنا، فلابد أن نرجع إلى الله في حياتنا ونحن نحاسب أنفسنا

كـــمقدمة لذلك الحســـاب، وندع الغفلة.. وندع الإعراض.. ونـــدع اللهو.. وندع الانشـــغال الكـــامل بالدنيا.. لأنّ أكـــثر ما يُبعِدنا عن محاسبة أنفسنا هو:

الغفلة!... الغفة عن الموت، والغفلة عن الرجوع إلى اللهﷻ، والغفلة عن الوقوف بين يدي الله، والغفلة عن أنَّ الله لابدَّ أن يكون محاسباً لنا والحال أنّ اللهﷻ يقول كما في سورة الأنبياء/آية/١:-

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾

قال ذلك عند نزول القرآن، قال ذلك قبل ألف وأربعمئة سَنَة.

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾

ولكـــن أعطى حالة الأُمَّة، الحالة الأغلبية للنـــاس **﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾** غفلة عن الموت، غفلة عن يوم الحساب، غفلة عن الله!...

لأنَّ الذي يذكر الله، لابدَّ أن يذكر الموت، وأن يذكر القيامة، وأن يذكر الوقوف بين يدي اللهﷻ.. وهذا على قول النَّبيﷺ:-

﴿النَّاسُ نِيَامٌ﴾ غفلة!...

﴿إِذَا مَاتُوْا انْتَبَهُوْا﴾، لماذا؟!...

لأنَّ الغيب يكـــون عندهم شـــهادة بعد موتهم، حيث ينزل إلى القبر ويرى المنكر والنكير، ويبدأ له بالسؤال ولابدَّ أن يجيب!...

ولهـــذا في حياته الدنيا يعيش حالة الغفلة.. وإذا كـــان يعيش حالة الغفلة، فلابدَّ أن تكون نتيجتها الإعراض!...

وإذا كان نتيجة الغفلة: الإعراض، يأتينا الحكم الإلهي (القانون الإلهي) كما في سورة طه/آية/١٢٤:-

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾

هذا في الحياة الدنيا، وفي الآخرة كيف حاله؟... قال اللهﷻ:-

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى* قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنْسَى﴾[1]

فالعبد إن نسي اللهﷻ وهو في الدنيا، ينساه اللهﷻ وهو في الآخرة.. وإذا نُسِيَ هناك، فلا يدري كم يبقى في العذاب؟!...

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾

دائماً، تكون الغفلة عكس المحاسبة!... إن كان هناك محاسبة فلا غفلة، وإن لم يكن هناك محاسبة، تكون النتيجة غفلة.. وإذا كانت النتيجة غفلة، فالحاصل هو الإعراض.

محاسبة النفس.. فيها حياة الإنسان:

إذن، فالمحاسبة هي دائماً إحياء الضمير، وإحياء القلب، وإحياء النفس.. المحاسبة هي دائماً وضع النقاط على الحروف (مع الداخل)!... المحاسبة هي سَحْبُ النفس إلى اللهﷻ فكراً وسلوكاً، لأنَّه واثق ومطمئنٌ أنَّه سيقف بين يدي اللهﷻ ويحاسبه الله!...

---

[1] سورة طه/آية/(١٢٥-١٢٦).

وإذا وقــفَ بين يدي اللهﷻ ويحاســبه الله، فلابدَّ أن يكــون حسابه على كل صغيرة وكبيرة في حياته.

لأنَّ هناك موازين، وموازين عادلة لا يُظلَم فيها أحدٌ، ولأنَّها هي موازين عادلة فلابدَّ أن يُســتجمع ويُســتقصى كلُّ ماله وكلُّ ما عليه من خيرٍ ومن ســوءٍ (والعياذ بالله) حتى يتمَّ الحســاب وحتى يكــون الميزان عادل وحتى تكــون النتيجة ســليمة، ولهذا نرى (سُبْحَانَهُ وتَعَالَى)، يقول في سورة الأنبياء/آية/٤٧:-

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾

كِــناية عن الشيء الضئيل الصغير **﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾** تقريب للعمل البسيط، للقول البسيط، للعمل الصغير إلاَّ أنَّه في ذلك اليوم كله يأتي!...

ولهذا لابدَّ أن لا نســتخفَّ بأي عمل، لابدَّ أن لا نستخفَّ بأي قول، لابدَّ أن لا نستخفَّ بأي خدمة لله وخدمة لعباد اللهﷻ وإن كانت صغيرة، ربَّما يكون هذا العمل الصغير مقبولاً عند اللهﷻ وفيه درجة عالية من الإخلاص، فهو الذي يُثقل الميزان.

فمــا دامت الأعمال الضعيفة والصغيرة والقليلة والضــئيلة، تُحســب.. فلربَّما هذا العمل الصغير هو الذي يُثقل كَــفّة الميزان، ولربَّمــا هذا العمل الصــغير فيه جانب كــبير من الإخلاص للهﷻ

فيكــون له الحجم الكبير عند اللهﷻ ويُسبِّب نجاة العبد يوم وقوفه بين يدي اللهﷻ ويوم حساب الله له.

يحتمل أن تكــون كلمة صغيــرة!... يحتمل أن تكون شــربة ماء!... يحتمل أن تكون:

-إزالة أذى عن مؤمن!...

-إزالة أذى عن طريق المسلمين المؤمنين!...

-مساعدة في عبور بسيط من جانبٍ إلى جانب!...

-مسحة على رأس يتيم!...

-قراءة آية من القرآن الكريم!...

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[1]

هذا هو حســاب اللهﷻ لنا عندما نرجع إلى الله في الآخرة.. المطلوب منَّا أن نرجع إلى الله في الدنيا ونحاسب أنفسنا!... فدائماً الرجوع يعني: الحساب!...

والفرق بين الحســابين هو: حســاب بطواعية منا في الدنيا، ولهذا يُوجَد مجال للتصحيح.

أمَّا هناك في الآخرة، الحساب ليس بطواعية منا، وليس هناك مجال للتصحيح.

---

[1] سورة الأنبياء/آية/٤٧.

لأنَّه يقول: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ فلا مفرَّ من الرجوع إليه، ولَمَّا كان لا مفرَّ من الرجوع إليه، يعني: لا مفرَّ من الحساب، ولَمَّا كان لا مفرَّ من الحساب، إلاَّ أنَّه هناك لا مجال للتصحيح ويقول العبد وهو نادم وهو منكسر وهو قد ملأَ قلبه ونفسه الحسرة:

-يا ويلي، على ما فرَّطتُّ.

يقول وكما في سورة المؤمنون/آية/(٩٨-٩٩):-

﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾

يأتي الجواب، وكما في سورة المؤمنون/آية/٩٩:-

﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾

صور الحساب في القرآن الكريم:

ولهذا نرى أنَّ القرآن الكريم يُعطينا صورتين:

الصورة الأولى: صورة للذين غفلوا عن الحساب.. صورة للذين تماهلوا مع أنفسهم.. صورة للذين أعرضوا عن الله ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾.

الصورة الثانية: الذين كانوا قد ذكروا اللهﷻ وأعدُّوا ما يتمكَّنون من تربيةٍ لأنفسهم، وحسابٍ ليوم موقفهم بين يدي اللهﷻ.

تلك الصورة الأولى، صورة قاتمة، صورة مظلمة، صورة مخيفة، صورة مرعبة، صورة شديدة.

والصورة الثانية صورة فيها الرحمة، وفيها اللطف، وفيها العطاء، فيها العناية الإلهية، فيها درجة من درجات القُرب!...

أمَّا الصورة الأولى، صورة البعيدين عن اللهﷻ والذين غفلوا وأعرضوا ولم يحاسبوا أنفسهم، يقول تعالى كما في سورة الرعد/آية/١٨:-

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيْعَاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوْءُ الحِسَابِ﴾

الذين لم يستجيبوا إلى اللهﷻ في الحياة الدنيا، الذين لم يمثِّلوا العبودية ما بينهم وبين الله.. الذين لم يستجيبوا لأوامر الله.. لم يستجيبوا لقرآن الله، لم يستجيبوا لسُنَّة نبيِّه.. لم يستجيبوا لأوامر الأئمَّة الطاهرين، لم يستجيبوا لأوامر الصحابة الصالحين.. الذين لم يتخلَّقوا بأخلاق الله ولا أخلاق القرآن ولا أخلاق الرسول، ولا أخلاق الأئمَّة ولا أخلاق الصحابة.

الذين كانت استجابتهم لأهوائهم ولغرائزهم ولميولهم.. الذين كانت استجابتهم للدنيا.. الذين كانت استجابتهم للشيطان، ولم يستجيبوا للرحمن، أولئك لهم سوء الحساب.

سوء الحساب: يعني أصعب الحساب.. يعني أعسر الحساب.. يعني أشد الحساب.. يعني أقصى الحساب.. وتكون النتيجة: أقصى العقاب وأعلى مستويات العذاب.

لأنَّهم لم يستجيبوا إلى الله.. لم يكونوا عبيداً للهﷻ، وإنَّما كانوا عبيداً للشيطان، عبيداً للدنيا..

لأنَّ الله كان يقول له: الكذب حرام، وكان يكذب!... ويقول له: الغيبة حرام، وكان يستغيب!... ويقول له: الزِّنا حرام، وكان

يزني!... وما شابه وشاكل ذلك... فهو لم يستجِبْ لأوامر اللهﷻ، فتكون النتيجة هو: سوء الحساب.

الآية الأخرى تُعطينا نفس الصورة بشكلٍ أوضح.. يقول تعالى في سورة الطلاق/آية/٨:-

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً﴾

لأَنَّها عتت عن أمر ربِّها.. كانت الأوامر الإلهية تأتيها وهي لا تعتني بها، وهي لا تُسلِّم لها، وهي لا تستسلم لها، وهي لا ترضى بها.. وهي لا تكترث بها، وهذه الأوامر كانت تأتي عن طريق الرسول.. ولهذا تقول الآية:-

﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾

دائماً طاعة اللهﷻ، هي مقترنة مع طاعة الرسول، وطاعة الرسولعليه وآله الصلاة والسلام مقترنة مع طاعة الله.. لأنَّ الأمر الإلهي لا نعرفه إلاَّ عن طريق الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، وكما في سورة النساء/آية/٥٩، وسورة المائدة/آية/٩٢، وسورة النور/آية/٥٤، وسورة محمدعليه وآله الصلاة والسلام/آية/٣٣، وسورة التغابن/آية/١٢:-

﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾

ولهذا وكما في سورة الحشر/آية/٧:-

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾

ولهذا الرسول وكما في سورة النجم/آية/(٣-٥):-

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى* إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوْحَى*عَلَّمَهُ شَدِيدُ

القُوَى﴾

أمَّـــا في حالة أنَّ الفــرد أو الأُمَّـــة، لم يستجيبوا لأمْر الله ﷻ وعتت عن أمر ربها، بعدم الاعتناء وعدم الالتفات وعدم الاستجابة بل بالإعراض، فيكون كما في سورة الطلاق/آية/٨:-

﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً﴾

هناك (سوء الحساب)، وهنا (حساباً شديداً)، وإذا كان الحساب شديد، فلابد أن تكون النتيجة:-

﴿عَذَاباً نُكْراً﴾

لا يخطــر على بال، ولا يمكن وصفه إلاَّ مَن يعيشه!... هذه الصورة الأولى السوداء المؤلمة القاتمة.

الصــورة الثانية: الذين التفتوا إلى أنفســهم في الحياة الدنيا وحاســبوا أنفســهم في الحياة الدنيا.. يقول تعالى كــما في سورة الرعد/آية/٢١:-

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾

حصل عندهم الاســتعداد للحســاب من الدنيا، ولهذا حاسَبوا أنفســهم هنا، فوصلوا ما أمَرَ الله به أن يُوصَل.. والله أمَرَ الوصل ما بينه وبين عبده، فوصلوا ما بينهم وبين الله.

الله أمرَ وجعلَ حدود للعلاقات ما بين الإنســان وبين نفســه وبين أسرته وبين مجتمعه وبين ربِّه، وأوصلوا هذه الأوامر، نفَّذوا هذه الأوامر لأنَّهم يخشون ربهم، أولاً.

ولأنَّهم يخافون سوء الحساب، لأنَّهم يعلمون أنَّ هناك يوم حساب، فيخافون من الخزي بين يدي اللهﷻ والخجل بين يدي اللهﷻ، ولهذا حاولوا أن يصلحوا أمورهم في الحياة الدنيا.. هذه صورة رائعة، هذه صورة للمؤمنين عباد الله!... تكون النتيجة كما في قوله تعالى في سورة الانشقاق/آية/(٧-٨):-

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ* فَسَوفَ يُحَاسَبُ حِسَابَاً يَسِيرَاً﴾

دائماً اليمين يمثِّل الاستقامة.

هذا الفَرْق بين الصورتين:

هناك، **﴿سُوءَ الحِسَابِ﴾** و**﴿حَسَابَاً شَدِيدَاً﴾** و**﴿عَذَابَاً نُكْرَاً﴾** وهنا، يُعطى الكتاب بيمينه وبعد أن يُعطى الكتاب بيمينه، يطمئنُّ قلبُه، وعند ذلك **﴿يُحَاسَبُ حِسَابَاً يَسِيرَاً﴾** لأنَّه قد أُعطيَ الكتاب باليمين.

ولأنَّ الأرقام كلها واضحة وظاهرة، ولهذا يكون حسابه حساباً يسيراً.. لأنَّه يكون قريب من الشفاعة الإلهية، من شفاعة مُحمَّد وآل مُحمَّد، من شفاعة الصحابة الصالحين، من شفاعة المؤمنين، ولهذا يكون حسابه حساباً يسيراً!...

يكون حسابه يسيراً لأنَّه حاسبَ نفسه في الحياة الدنيا قبل أن يقف بين يدي اللهﷻ ويحاسبه الله.

وهكذا قلنا ونقول:

مَن يحاسب نفسه في الحياة الدنيا، يسهل عليه الحساب يوم

القيامة، يكون حسابه حساباً يسيراً.

والذي لم يحاسب نفسه في الحياة الدنيا، يكون هناك في الآخرة، له سوء الحساب.. حساباً شديداً وعذاباً نُكْراً.

ولهذا لابدَّ أن ننظر ونختار:

-إنْ حاسَبْنا أنفسنا، يسهل علينا الحساب يوم القيامة.. وإنْ غفلنا وأعرضنا، فيكون حسابنا شديداً وعذابنا عذاباً نُكراً.

الفصل الأَوَّل

المبحث السادس

مبحث تفسيري

مبحث تفسيري

لغرض الوقوف على مقاصد الآية الكريمة (١٢٨) من سورة التوبة المباركة، لابدَّ من الرجوع إلى تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج٣٩/ص(٣١٥، و٣١٦)، لبيان ذلك:

((قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

أي: لقد جاءَكم يا معشر العرب، رسول منكم، عربي مثلكم ومِن أكرمِ بيتٍ فيكم، وقد نشأ بينكم فعرفتُموه منشأ وخُلُقَاً، وهذا الرسول يشقُّ عليه كثيراً ما يشقُّ عليكم، حريص عليكم فلا يُفرِّط في أمرٍ فيه خيركم ومنفعتكم، وبالمؤمنين منكم ومن غيركم عظيم الرأفة والشفقة، وافر الرحمة.

ويرى بعض المُفسِّرين: أنَّ الخطاب في قوله تعالى:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ .....﴾ الآية.

للناس عامَّة، لأنَّ بِعثَتَه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) عامَّة لجميع الناس في جميع العصور، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] وهو المعنى الراجح عندنا.

---

[1] سورة الأنبياء/آية/١٠٧.

والمعنى: لقد جاءَكم أيُّها الناسُ، رسول من أنفسكم، أي: من جنسكم، بشر مثلكم، إذ لو كان من الملائكة، لضعُفتْ قُوَّة البشر عن سَماع كلامه والأخذ عنه، ولا تعارض في هذا الرأي مع الرأي السابق، فإنَّ رسالته للعرب لا تُنَافِي رسالتَه للنَّاس أجمعين.)) (انتهى).

من أجل الإحاطة التامَّة بمعنى الآية الكريمة (١٥٩) من سورة آل عمران المباركة، رجعنا إلى تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج٣١/ص٣١٥ وما بعدها لتوضيح ذلك المعنى، حيث ذكرنا ما يلي:

((قوله تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾

بيان لِعِظَم حِلْم النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ورحمة اللَّه به وبهم، بعد ما كانت منهم من مخالفة أمر الرسول وفِرارهم، كما سبق بيانه.

أي: فبسبب رحمةٍ واسعةٍ من الله -بك وبهم- وفَّقك الله للصَّفْح عنهم، فَلِنْتَ لهم ورَفقْتَ بهم، ولم تَغلُظْ عليهم في المَلام مع أنَّهم فعلوا ما يقتضي أشد التعنيف، إذ ترك أكثرُ الرُّماة أماكنهم فوق الجبل، واشتغلوا بجمع الغنيمة، فمكَّنوا المُشركين من صعوده مكانهم، وقَلْب ميزان المعركة لصالحهم، وتَرتَّبَ عليه أن أكثرَ الجيش فَرَّ، وتُرِكَ الرسولُ في قِلَّةٍ من أصحابه، فناله من أذى

المشركين ما ناله، حتى أَرْجَفوا بقتله، فكان لِينُ الرَّسول معهم -بعد ذلك- رحمة من رحمات الله به وبهم، إذ كان سبباً في بقاء الإسلام، وجمْع قلوب المسلمين.. ولذا قال (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى):

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾:

أي: ولو كنتَ جافيَ الطبع، قاسيَ القلب، فعاملْتَهم بقسوة، وعنَّفْتَهم على ما كان منهم، وأَشَحْتَ عنهم غضباً عليهم، لَنَفَرَتْ قلوبهم منك، فتفرَّقوا عنك، ولم تستطِعْ أداء رسالتك، وتبليغ دعوتك على وجهها الأكمل.

فَلِينُهُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) معهم -على خطئهم- وعفوه عنهم لم يكن عن ضعف، وإنَّما كان ناشئاً عن الرحمة التي فَطَرَهُ الله عليها.

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾:

أي: اعف عنهم فيما يتعلَّق بحقِّك، واستغفِرْ لهم فيما يتعلَّق بحقِّ الله.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾:

أي: في أمر الحرب وغيره من كلِّ أمرٍ له خطر ولم ينزِلْ في شأنه وَحْيٌ، استظهاراً برأيهم، وتطييباً لنفوسهم، ورَفْعاً لأقدارهم، وتقريراً لِسُنَّة التشاور في الأُمَّة الإسلامية.

وقد ذكروا أنَّه قد عَلِم الله أنَّه ما به حاجة، ولكنَّه أراد أن يُسْتَنَّ به من بعده.

وقيل: كانت العرب، إذا لم يشاوَروا في الأمر، شَقَّ عليهم ذلك، فأمر رسول اللهﷺ بمشاورة أصحابه، لئلاَّ يثقُلَ عليهم استقلاله بالرأي دونهم.. وكان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، يُدرِك -تمام الإدراك- ما للمشاورة من أَثَرٍ في الوصول إلى الصواب.

وفي ذلك يقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ):-

﴿مَا تَشَاوَرَ قَوْمٌ قَطُّ، إِلاَّ هُدُوا لأَرْشَدِ أَمْرِهِمْ﴾

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه﴾:

أي : فإذا استقرَّ رأيُك، وسكَنَتْ نفسُك -بعد المشاور- فأَمْضِ الأمر ولا تتردَّدْ، وتوكَّلْ على الله في تنفيذ ما عزمتَ عليه فإنَّه هو المُعين لك في أمور الدين والدنيا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾: عليه في جميع أمورهم وإنَّما يُحبُّهم، لأنَّهم أخلصوا نفوسهم له، وطردوا عنها ما سواه، إذ لم يروا في غيره غَنَاء..

وحُبُّ الله لهم مَجاز عن توفيقه وإرشاده لهم في الدنيا، وحُسْن المَثُوبة في الآخرة.)) (انتهى).

الأُسوةُ الحَسَنَة مصطلح قرآني ذُكِر في الآية الكريمة (٢١) من سورة الأحزاب المباركة، وللتوسُّع رجعنا الى تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج٣٢/ص(١١٤-١١٥)، فذكرنا ما يلي:-

((قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾

الأُسوةُ الحَسَنَة

هذه الآية مبدأ في التأَسِّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولقد أمر اللهُ (تَبَارَكَ وتَعَالَى) الناسَ فيها بالتَّأسِّي النَّبيِّ ﷺ يوم الأحزاب في صبره، ومُصابَرَته ومُرَابَطته، ومجاهدته، وانتظاره الفرج من ربِّه.

وقال مُعاتِباً للذين قلقوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب وللمُتخلِّفين: لقد كان لكم في رسول الله أُسوةٌ حسنةٌ، فهلاَّ اقتديتُم به وتأسيتُم بشمائله؟.. والآية وإنْ سِيقَتْ للاقتداء به (عَلَيْهِ السَّلاَمُ) في أمر الحرب من الثبات في القتال ونحوه، فهي عامَّةٌ للاقتداء به في كلِّ أفعاله ما لم يُعلَم أنَّها من خصوصياته.)) (انتهى).

(الحكمة) مُصطَلَحٌ كثيراً ما يُذكَر في الكُتُب الفكرية والمؤلَّفات العقائدية، ولاستقصاء القصد من هذا المصطلَح حسب المفهوم القرآني، رجعنا إلى تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج٢٩/ص٢٨٦، وما بعدها لبيان ذلك:

((﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾: أي: يُعطي الله فضل التمييز بين

الحقِّ والباطل، مَن يشـــاء من عباده الأخيار، فيختار الحقَّ ويعمل بمقتضاه، ويَذَر الباطل ويبعد عن طريقه.

﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾: ومَن يُعطِه الله نعمة التمييز بين الحقِّ والباطل، والخير والشرِّ، والصواب والخطأ يُبعِده عن المعاطب ويصل به إلى السلامة والنجاة.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾: وما يتفكَّـــر كما يتفكَّـــر أهل الحِكمة، أو يتَّعظ اتِّعاظهم، إلاَّ أصحاب العقول الخالصة، من شوائب الغباء والجهل، ومتابعة الهوى، ووساوس الشيطان.

بحثٌ في معنى الحكمة

وقد أحصى الشيخ الطوسي الأقوال في المراد من الحِكمة الذي من أُوتِيَها فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً، فقال: (قيل في معنى الحِكمة في الآية وجوه:

الأول: قال ابن عباس وابن مسعود: هو علم القرآن، ناسخه ومنسوخه، ومُحكَمه ومُتشابَهه، ومُقدَّمه ومُؤخَّره، وحلاله وحرامه، وأمثاله.

الثاني: قال ابن زيد: هو علم الدين.

الثالث: قال السُّدِّي: هو النُّبوَّة.

الرابع: قال مجاهد: الإصابة.

الخامس: قال ابراهيم النخعي: الفهم.

السادس: قال الربيع: الخشية.

السابع: قال قوم: هو العِلْم الذي تعظُم منفعته وتحلُّ فائدته وهو جميع ما قالوه.

الثامن: قال قتادة والضحاك، وفي رواية عن مجاهد: هو القرآن والفقه، وهو المروي عن أَبِي عَبْدِ اللهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وإنَّما قيل للعِلْم: حِكمة، لأنَّه يُمتنَع به من القبيح لِمَا فيه من الدعاء إلى الحَسَن، والزَّجْر عن القبيح.

التاسع: قال الجَبَّائي: هو ما آتاه الله أنبياءً وأُممَهم من كُتُبه وآياته ودلالاته التي يدلُّهم بها على معرفتهم به وبدينه وذلك تفضُّل منه يُؤتيه مَن يشاء)[1]

وقد ذَكَرَ محمد بن مسعود العيَّاشي في تفسيره: الخبر الذي أشار إليه الشيخ الطوسي، ونحن نعتمده في اختيار المعنى المراد، قال العيَّاشيُّ:

(عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ خَالِدٍ قَالَ سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، فَقَالَ:- ﴿إِنَّ الْحِكْمَةَ: اَلْمَعْرِفَةُ وَالتَّفَقُّهُ فِي الدِّينِ، فَمَنْ فَقِهَ مِنْكُمْ فَهُوَ حَكِيمٌ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَحَبَّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنْ مَوْتِ فَقِيهٍ﴾)[2]

---

[1] التبيان في تفسير القرآن/ج٢/ص٣٤٧.

[2] تفسير العيَّاشي/ج١/ص١٥١.

وللسيد المتبحِّر عبد الأعلى الموسوي السبزواري(رحمه الله) قول في الحِكمة نسوقه هنا لتمام الفائدة:

(والحِكمة هي التي تمنع صاحبها عن القبائح والرذائل اعتقاداً وقولاً وعملاً على نحو تكون مُحكَمة في النفس لا يصيبها ضعف ولا فتور، غالبة على قوى النفس والإرادة توجِّهها نحو الخير والسعادة، وفي الحديث:-

﴿فِي رَأْسِ كُلِّ عَبْدٍ حَكَمَةٌ إِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَإِنْ شَاءَ اللهَ أَنْ يَقْدَعَهُ بِهَا قَدَعَهُ﴾)

[الحَكَمَة: حَدِيدَةٌ في اللِّجام تكُونُ عَلَى أَنْف الفَرَس وَحَنَكِهِ، تَمنَعُهُ عَنْ مُخالَفَةِ رَاكِبِهِ. ولَمَّا كَانَتِ الحكَمَةُ تَأْخُذُ بفَمِ الدَّابَّةِ، وكَانَ الحَنَكُ مُتَّصلاً بِالرَّأْسِ جَعَلَهَا تَمْنَعُ مَن هِيَ فِي رَأْسِهِ، كَمَا تَمنَعَ الحَكَمَةُ الدَّابَّةَ].

أي: تمنع مَن هي في رأسه من السَّيِّئة بنحو الاقتضاء كما تمنع الحَكَمَةُ الدَّابَّةَ، ويُوصَف بها الله تعالى، فإنَّ من أسمائه الحُسنى (الحَكَم) و(الحكيم)، وقد وَرَدَ في أكثر من تسعين مَورِداً في القرآن الكريم مقروناً، إمَّا بالعزيز والعليم أو الخبير أو العليّ، ولعلَّ ذلك لملازمة حقيقتها فيه تعالى لتلك الصفات فجيء بها تبييناً وإيضاحاً، كما يُوصَف بها الإنسان، قال تعالى:-

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[1]

---

[1] سورة لقمان/آية/١٢.

وإذا تتبَّعنا الموارد التي ذكــر فيها الحِكمة في القرآن الكريم نرى أنَّها تُذكَر تارة مقرونة مع الكتاب قال تعالى:-

﴿....وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ....﴾[١]

وأخــرى بعد ورود جمــلة من الأحكام الشــرعية التي نزلت لتهذيب الإنسان وسَوْقه إلى الكمال والسعادة كما في سورة الإسراء قال تعالى بعد سَــرْد جملة كــثيرة من التكــاليف الإلهية والأحكام الفِطرية:-

﴿....ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ....﴾[٢]

ويُســتفاد من ذلك: أنَّ الحِكْــمة هي تلك المطالب الحَقَّة التي ترتَسِم في النفس وتُوجِب التوفيق بين الاعتقاد والعمل والسَّوْق إلى الكــمال المنشود للإنسان، فتشمل جميع الحقائق الفِطرية والأحكام الشــرعية والمعارف الحَقَّة التــي تتعلَّق بالمبدأ والمَعاد، وتشــرح الحقائق المتعلِّقة بالنظام الأحسن من حيث ارتباطه بسعادة الإنسان والتي لا تقبل الكــذب والبطلان، فتكــون للحِكمة مظاهر كــثيرة متفاوتة، فتارة تتجلَّى في القرآن الكــريم الذي هو مصدر كــلِّ ما يكــون في العالَم من أنواع الحِكمة المتعالية وهي من أَشِعــَّة هذا النور العظيم وشــوارق ذلك النَّيِّر المُعظَّم، تأخَّر زمان وجودها أو تقــدَّم، لأنَّ القرآن من اللوح المحفوظ، وهو محيط بهذا العالَم، كما أنَّ الكُتُب الإلهية من مظاهر هذا التَّجلِّي الأعظم.

---

[١] سورة الجمعة/آية/٢.

[٢] سورة الإسراء/آية/٣٩.

ومن مظاهرها أيضاً: الدِّين ومعرفته والتفقُّه فيه، فإنَّ الدِّين هو القانون المُتكفِّل لجميع مطالب الإنسان من حين نَشْأتِه إلى ما بعد مماته وعن نبيِّنا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم:-

﴿إِنَّ اللهَ آتَانِي مِنَ الْحِكْمَةِ مِثْلَ الْقُرْآنِ وَمَا مِنْ بَيْتٍ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْحِكْمَةِ إِلاَّ كَانَ خَرَاباً، أَلاَ فَتَعَلَّمُوا وَتَفَقَّهُوا وَلاَ تَمُوْتُوا جُهَّالاً﴾

ومن أَجَلِّ أفراد الحِكمة وأعظمها شأناً: معرفة الله الواحد الأحد المُتفرِّد الصمد.

فهي بحسب المبدأ هو الجهد الأكيد في التَّصدِّي لمرضاة الله الحكيم، وبحسب الغاية لذَّة روحانية مُفاضة من الغيب العليم، ويلزم الإحاطة بحقائق الأشياء على قدر طاقة الإنسان ولأجل هذا تُطلَق الحِكمة على تلك المعلومات الحقَّة الصادقة، ويُسمَّى العارف بها: حكيماً إلهياً أو مُتألِّهاً.. وبالجملة: هي الخير الكثير كما وصفها به (عَزَّ وَجَلَّ)، وفي الحديث:-

﴿إِنَّ فِي الْجَنَّةِ دَاراً -وَوَصَفَهَا ثُمَّ قَالَ- **لاَ يَنْزِلُهَا إِلاَّ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ أَوْ مُحَكَّمٌ فِي نَفْسِهِ﴾**

ومن الحِكمة ما تكون فِطرية إفاضية من عالَم الغيب، ومنها ما تكون اكتسابية تُكتَسَب بالمُجاهدات والرياضات الشرعية، ومنها ما هو مُركَّب منهما.

ومن الحكماء مَن اجتمع جميع أنواع الحِكمة فيه، وهم رجال

صـــدقوا ما عاهدوا الله عليه بكلِّ معنى الصدق والوفاء، فَشَرَح اللهُ صدورهم بكلِّ معنى الانشراح، تشتاق إليهم الجِنان العاليات وهذه هي إحدى مراتب الحِكمة وقِسْ عليها سواها.

ولكـــن للحِكمة مرتبة خاصَّة محجوبة عن البصائر والأفكار لا تَليق إلاَّ لِمَن يقدر على تحمُّل الأسرار، ويشهد لِمَا قلناه شواهد من العقل والآثار والأخبار، كـــما أنَّها ليســـت منحصِرة بالبحث والنظر والفكـــر، فقد تحصل للنفوس المُســـتعدَّة من إفاضات الباري، فعن نبيِّنا الأعظمﷺ:-

﴿إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُؤْمِنَ سَكُوتَاً فَادْنُوا مِنْهُ، فَإِنَّهُ يُلَقَّى الْحِكْمَةَ﴾

وعنه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ):-

﴿اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ﴾

ولكنَّ الأصل في إفاضة جميع أفراد الحِكمة والعِرْفان ومراتبها هو الإخلاص للهﷻ، فعن نبيِّنا الأعظمﷺ:-

﴿مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ، وَأَنْطَقَ بِهَا لِسَانَهُ﴾

وعن جَمْعٍ من أكـــابر علماء النفس دعوى التجربة في ذلك، فتكـــون حقيقة الحِكمة ارتباطاً خاصَّاً مع عالَم الغيب، وأمَّا غيـــرها فهو فنٌّ وصناعةٌ وهما شيءٌ والحِكمة الواقعية شيءٌ آخر.

نعم، الحِكـــمة تارةً تكون علميـــة وأخرى عملية، ولا نهايـــة لمراتبهما:

أمَّا الثانية: فغايتها الرضوان ولقاء اللهﷻ ولا نهاية لكلٍّ واحدٍ منهما.

وأمَّا الأولى: فإنَّ غايتها الاستلهام من الغيب وهو غير محدود والتحديد إنَّما يكون من المُمكِن المُستفِيض لا في المُبدِئ المُفِيض.

وقال بعض الأعاظم من الحكماء المتألِّهين: (إنَّ غاية ما للإنسان من الكمال هو الاتِّصال بالعقل الفعَّال المسيطر على المُلْك والمَلَكوت: تسيطر الروح على الجسد).

وهذا صحيح إذا كان المراد بذلك، روح القرآن والشريعة الأحمدية المنبعثة عن الحقيقة المُطلَقة الأحدية، لأنَّ الإحاطة بالواقعيات صعبةٌ جدَّاً إن لم تكن ممتنعة مهما بلغت فِطنةُ العقول في الحِدَّة والذكاء والدِّقَّة، لا سيَّما بالنسبة إلى المعارف وأسرار القضاء والقدر التي لا يمكن أن يحيط بها غير علاَّم الغيوب، وقد وَرَدَ النهي عن الخوض في جملةٍ منها، وأنَّه لا يزيد الخوض فيها إلاَّ تحيُّراً، فلا مناصَّ للحكيم إلاَّ الوقوف على ظواهر الكتاب والسُّنَّة المُقدَّسة، وهي تحتوي على معادن العِلم والحِكمة والمعارف وما يكفي لتكميل النفوس الناقصة وإيصالها إلى أوج الكمال والمعرفة وهي الحِكمة الحَقَّة التي تفيد لجميع النشآت، قال تعالى:-

﴿....مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ....﴾[1]

أي: الكتاب المشروح بالسُّنَّة أو السُّنَّة الشارحة للكتاب، وقال

[1] سورة الأنعام/آية/٣٨.

تعالى:-

﴿....وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[١]

وهو مصدر كلِّ عِلْم ومعرفة، هذا بالنسبة إلى الحِكمة العلمية.

وأمَّا الحِكمة العملية فلابدَّ وأن تكون مطابِقة للشريعة المُقدَّسة الختمية وإلاَّ كانت لغواً محضاً.

ثم إنَّه غلب استعمال الحِكمة على الفلسفة المُتوارَثة من اليونان وقد اصطُلِح على قدماء الفلاسفة بـ(الحكماء)، وقسَّموهم إلى: الإشراقيين والمَشَّائيين والرُّوَاقِيين كما أنَّهم قسَّموا الحِكمة الاصطلاحية (الفلسفة) إلى علمية وعملية، والثانية عبارة عن عِلم الفِقه والأخلاق وقسَّموا الفقه إلى العبادات والمعاملات، أي: (العقود والإيقاعات) والأحكام والسياسات وأنَّ بمعرفتها والعمل بها يصل الإنسان إلى مقام الإنسانية والخروج عن حدود الحيوانية البهيمية وبذلك تتمُّ المدينة الفاضلة التي خُلِق الإنسان لأجل ورودها والاستكمال فيها.

وقُسِّمت الحِكمة العلمية إلى قسمين: الإلهيات والطبيعيات، ولكلٍّ واحدٍ منهما فصول وأبواب، وقد جُعِل كلُّ فصلٍ من فصول الطبيعيات في العصر الحديث عِلماً مُستقلاً برأسه.

كما أنَّ من فصول الفلسفة الإلهية البحث عن كلام اللهﷻ من حيث قِدَمه وحُدوثه، وكَثُر النَّقْض والإبرام فيه، حتى جُعِل ذلك عِلماً

---

[٢] سورة الأنعام/آية/٥٩.

مستقلاً له أبواب كثيرة وفصول طويلة.

ولكنَّ كلَّ مَن نَظَر في الحِكمة الاصطلاحية، يرى أنَّها كغُبار على اللُّجَين، ولو فُرِض فيها شيءٌ، صحيح فهو مُستلْهَمٌ من الوحي المُبين أو السُّنَّة المُقدَّسة، وغيره ليس إلاَّ من الأوهام والتخيُّلات والمغالَطات وكلّ واحدٍ منها حِجاب عن الوصول إلى الواقع، ولذلك كثُر الخلاف وقلَّ الوصول إلى المراد.

وقد ذكرنا أنَّ الحِكمة بمَعزِلٍ عن البطلان والتكذيب ومنزَّهة عن جميع ذلك، وإذا كانت الحِكمة ما ذكروه فليست هي إلاَّ العِلم بالمصطلحات فقط، فهي كعِلم اللغة مثلاً وهي صنعةٌ وفنٌّ لا تزيد على سائر الصنايع والفنون، بل ربَّما يكون بعضها أفضل منها كما هو المحسوس.. ويُستفَاد من الآية الشريفة أهمِّيَّة الحِكمة وعظيم منزلتها وشَرَافتها من وجوه:

الأول: ذِكْرها في سياق فَضْل الله ﷻ وهو واسع عليم.

الثاني: تعليق إتيانها على مَن يشاء، وهم خُلَّص عباده، فيُفهَم من ذلك: أنْ ليس لكلِّ أحدٍ الوصول إليها إلاَّ بعنايةٍ منه (عَزَّ وَجَلَّ).

الثالث: توصيفها بالخير الكثير.

الرابع: الحَصْر المستفاد من قوله تعالى:-

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾[1]

---

[1] سورة البقرة/آية/٢٦٩، وسورة آل عمران/آية/٧.

فإنَّــه يدلُّ على أنَّهــم المُتيقِّنون من مَورد المشــيئة لإفاضة الحِكمة.

الخامس: ذِكْرها في القرآن الكريم مقروناً بالتجليل والتعظيم فتكون هذه الموهبة الرَّبَّانية نصيبُ مَن أفنى جميع شؤونه الإمكانية في مرضاة ربِّه وصار قلبُه مُتيَّماً بحُبِّه وَوَلِهاً في عَظَمَته ولم يكن له بقاءً إلاَّ منه تعالى وبِه (عَزَّ وَجَلَّ).

وحينئذٍ تصير ذاته ونفسه حِكــمة جوهرية، وأعماله حِكمة عملية، وأفكــاره حِكمة علمية.

وهــم الذين ثبُت الحقُّ في ضمائرهم، وأُزهِق الباطلُ عن سرائرهم، وانقشعت عن بصائرهم ســحائب الارتياب، وعن قلوبهم أغشــية المِرْيَة والحِجاب، ففازوا بالمحلِّ الأعلى، وحازوا القَدَحَ المُعَلَّى ونظروا إلى جميع ما ســوى اللهﷻ بالنظرة الأولى.

وحيث أنَّ لهذا المقام مراتب كثيرة من الظهور، وكلَّما كثُرت مظاهر الشيء كثُرت أسماؤه، فقد تكون الحِكمة: القرآن الذي يعمل به وقد تكون السُّنَّة المُقدَّسة والعمل بها، والعِلْم بحقايق الموجودات مع الالتفات إليها من حيث المبدأ والمنتهى.)) (انتهى).

القرآن الكــريم ((حَمَّال ذو وجوه)) كما يصفه علماء التفسير واللغة، ولغرض الإحاطة بمقاصد الآية الكــريمة (٩٠) من ســورة النحل المباركة، عدنا إلى تفسيرنا: (البيان والتبيــان فــي تفســير وتنزيل القرآن)/ج٢٣/ص٨٩، وما بعدها لاستيضاح معــاني تلــك

الآية الكريمة:

((أَجمَع آيةٍ في كتاب الله:-

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]

جاء في بعض الأخبار أنَّها أجمع آية للخير والشَّرِّ، وذلك لأنَّها جمعت إجمالاً بين ما يجب عملُه من الفضائل وما يتعيَّن تَرْكُه من الرذائل.

والعدل الذي يأمر به سُبْحَانَهُ خُلُقٌ جامع لكلِّ الفضائل من القول والعمل، يغرس في الإنسان حُبَّ الاستقامة والمساواة، والرغبة في طاعة الله، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وإنصاف الناس من نفسه، وإنصاف بعضهم من بعض.

وهذا الخُلُق يجعله إذا ما تصرَّف في أمرٍ من الأمور أو تخلَّق بخُلُق يتوسَّط فيه بين الإفراط والتفريط، والعدل استواءُ السريرة والعلانية من كلِّ عامل لله عملاً.

وكما يأمر سُبْحَانَهُ بالعدل ويدعو إليه، فإنَّه يأمر بالإحسان، وهو إحسان العمل وإتقان العبادة.

أي: الإتيان بها على الوجه المطلوب الذي يَليق بها من حيث الإخلاص لله، وكمال العبودية له، ويُشير إلى ذلك ما رواه البخاري من قوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ):-

---

[1] سورة النحل/آية/٩٠.

﴿الإِحْسَانُ أَن تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَم تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنهُ يَرَاكَ﴾[١]

هذا بحسب الكيفية، وأمَّا بحسب الكمِّية فبكثرة التطوُّع بالنوافل الجابرة لِمَا قد يقع في الواجبات من شائبة التهاون والنقص، أو بالاستزادة من كلِّ ما يُحقِّق للطاعة مراتب الكمال، ويجوز أن يُراد به الإحسان إلى الناس والتفضُّل عليهم، وأسمى درجاته على هذا المعنى: الإحسان إلى المسيء مع التمكُّن منه والقدرة عليه، وقد أمر بذلك نبيُّنا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ).

وقوله تعالى: **﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾**

أي أنَّه يأمر بِصِلة ذوي الأرحام، على أيِّ درجةٍ كانت قرابتهم وذلك بإعطائهم ما يحتاجون إليه، لا فرق بين الأقربين منهم والأبعدين، ويشير إلى ذلك ما جاء في النص الكريم من طلب إعطاء ذي القرابة مُطلقاً، ولو طلبها للأقرباء أو للأقارب أو للأقربين لم يُفِدِ التعميم، لأنَّ هذه الصِّيَغ تُقيِّد الإحسان لأكثرهم قرابة، فلذا جيء بهذا النص الكريم ليعمَّ ذوي القرابة مُطلَقاً، والتصريح بإيتاء ذي القربى مع أنَّه داخل في الإحسان الذي يأمر به اللهﷻ، للاهتمام بشأن صِلة القَرَابة وإعطائها حقَّ قدرها.

وقوله تعالى: **﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾**:

أي: ينهاكم عن الفحشاء قولاً وعملاً، والفحشاء: كلُّ ما عَظُم

---

[١] بحار الانوار/ج٦٢/ص١١٦.

قُبْحه من الذنوب ويكْثُر إطلاقُها على الزِّنى، وكما ينهاكم عن الفحشاء، ينهاكم عن جميع ما أنكره الشرع من المعاصي والآثام، وينهاكم أيضاً عن البَغي على الناس ظلماً وعدواناً بانتهاك حُرُماتهم، واغتصاب حقوقهم.

وقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾:

جملة مُستأنَفة لبيان الحِكمة في تشريعات هذه الآية الكريمة التي تُعتبَر دستوراً لمكارم الأخلاق.

والمعنى: أنَّه تعالى يُنبِّهكم بما جاء في هذه الآية الكريمة، لكي تتَّعِظوا فتسلُكُوا سبيلها وتعملوا بما جاء بها.)) (انتهى).

للإحاطة بمقاصد الآية الكريمة (١٣٥) من سورة النساء المباركة، وجدنا من الضروري الرجوع إلى تفسير هذه الآية المباركة، كما جاء في تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج٣٤/ص٢٥ وما بعدها، فذكرنا ما يلي:

((﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

العدل أساس الأمن الاجتماعي

هذه الآية -والتي بعدها- فيهما امتداد للحديث عن العدل، الذي سبق طرف منه في الآيات السابقة، وبين الإيمان والعدل رباط

وثيق، لأنَّ الإيمان الصحيح، يقتضي إقامة العدل والقسط بين الناس.

والمعنى: يأيُّها الذين آمنوا، كونوا مُواظِبين على العدل في جميع الأمور، مجتهدين في إقامته كلَّ الاجتهاد، لا يصرفكم عنه صارف، وكونوا شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، وذلك بأن تُقيموا شهاداتكم بالحقِّ خالصة لوجه الله، لا لغرضٍ من الأغراض الدنيوية، مهما يكُنْ أجرُهُ، ولو عادت الشهادة بالضَّرر عليكم، أو على الوالدين والأقربين، فإنَّ الحقَّ أحقُّ أن يُتَّبَع، وأَوْلَى بالمراعاة من كلِّ عاطفة وغرض.

﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾:

أي: إنْ يكُن المشهودُ عليه غنيَّاً يُرْجَى نفعه أو فقيراً يُثير فقرُهُ الرحمةَ، فلا تتأثَّروا بذلك كلِّه في شهاداتكم.

فاللهﷻ أولى بالأغنياء والفقراء، وأحقُّ منكم برعاية ما يناسب كُلاًّ منهما ولولا أنَّ أداء الشهادة على وجهها فيه مصلحة لهما، لَمَا شرعه الله، فراعوا أمره تَعَالَى فإنَّه أعلم بمصالح العباد منكم.

﴿فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾:

أي: فلا تتَّبِعوا في شهاداتكم -على هذا أو ذاك- هواكم كارهين إقامة العدل في شهاداتكم من أجل الرغبة في مصلحتهما، لأنَّ اتِّباع الهوى والميل، ضلال لا يَليق بالمؤمنين، وإقامة العدل

حقٌّ وهدى يجب على المؤمنين –وجوبا مُؤكَّداً– أن يتَّصِفوا به.

حكم شهادة الزور

﴿وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾:

أي: وإنْ تُميلِوا ألسنتكم عن الشهادة –بالإتيان بها على غير وجهها الذي تستحقُّه، أو تُعرِضوا عنها، وتتركوا إقامتها وتهربوا من أدائها– فإنَّ الله كان بما تعملون من مُعاداتكم للحقِّ بأيِّ وجه ممَّا سبق عليماً فيجازيكم على ما اقترفتُم.

هذا، وكما تَحرُم الشهادة للغنيِّ أو الفقير على غير وجهها، تَحرُم أيضاً الشهادة إذا كانت لغرض آخر كرعاية الجار، أو الطمع في جاهٍ أو منصبٍ عند حاكم، أو انتصار لطائفة أو مذهب أو نحو ذلك. وما جاء في الآية، إنَّما هو من باب ضَرب المثل.

وقد التزم المسلمون الأوَّلون مراعاة العدل التَّامّ، فلم يُفرِّقوا بين مَن كان على دينهم ومَن خالفهم اتِّباعاً لأهوائهم.)) (انتهى).

اللغة العربية لغةٌ دقيقة المعاني غزيرة في رسم الصور الذهنية، ولأجل الوقوف على مقاصد الآيات الكريمة لابدَّ من الرجوع إلى مصادر التفسير القرآني، ولأجل الإحاطة الشاملة بتفسير الآية المباركة (٨) فى سورة المائدة، رأينا الرجوع إلى تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتفسير القرآن)/ج٤٠/ص١٣٥ وما بعدها، للوقوف على تفسير هذه الآية المباركة:–

((قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

حكم الشهادة وحفظ العهد

بعد أن بيَّن الله -في الآيات السابقة- من الشرائع ما يتعلَّق بالمؤمنين، شَرَعَ في بيان الشرائع المتعلِّقة بما يجري بينهم وبين غيرهم، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾:

هذا أمر من اللهﷻ لعباده المؤمنين، بأن يكون دأبهم -دائماً- القيام لله بحقوقه، في أنفسهم بالعمل الصالح، وفي غيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر.

﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾:

أن يُؤدُّوا الشهادة بالعدل، على وجهها الصحيح، من غير مراعاة لقرابة أو صداقة، ومن غير مُحَابَاة أو مجاملة.

وعَقَّب ذلك بالنَّهي عن الجَوْر مع مَن يُبغِضونهم، فقال:

﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾:

أي: ولا يحملنَّكم بُغْضُ قوم أو عداوتهم -على أن تجوروا في حُكمكم أو تُغيِّروا في شهادتكم، لأنَّ المؤمن يجب أن يكون -دائماً- مُؤثِراً للعدل على كلِّ ما عداه، وأن يجعلَه فوق شهواته وأهوائه، وأكَّد (سُبْحَانَهُ وتَعَالَى) ذلك بقوله:-

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾:

أي: أنَّ العدل، هو أقرب الطُّرُق المُوصِلة إلى تقوى الله وخشيته، وأنسب الطاعات لها.

ثم أمر بتقواه -دائماً- في جميع الأحوال والأعمال: ظاهرها وباطنها، فقال:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: لأنَّ التقوى مِلاَك الأمر كلِّه، فلْيَحْذَر المؤمنون مخالفة أمر الله تعالى، ولْيتمسَّكوا بالعدل دائماً، ولا يحيدوا عنه.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾:

إنَّ الله ﷻ عليمٌ بدقائق أموركم، وسيجازيكم عليها، إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فَشَرّ.. وخَتْمُ الآية بذلك: تحذير من مخالفة الله، وتنبيه على أنَّه مُطَّلِع على دقائق الأمور.)) (انتهى).

لغرض الإحاطة بتفسير الآية الكريمة (٤٢) من سورة المائدة المباركة، لابدَّ من الرجوع إلى تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج٤٠/ص١٩٢، وما بعدها، حيث ذكرنا ما يلي:

((قوله تعالى: **﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾:**

القضاء بين أهل الكتاب

كرر تَسمُّعَهم للكذب والباطل، تأكيداً لاتِّصافهم بهذه الرذيلة

الشنيعة وتمهيداً لِمَا بعده، مِن وَصْمِهم برذيلةٍ أُخرى، وهي أَكْلهم أموال الناس بالباطل، كأكلهم الرِّبَا، وأَخْذهم الرشوة، لِيُحِلُّوا لأنفسهم ما حرَّم الله عليها.

وعبَّر عن المال الحرام بالسُّحْت، لأنَّه يَسْحَت البركة في المال، ويذهب به.

﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾:

أي: فإنْ جاءك اليهود مُتحاكمين إليك بعد ما سمعتَ من تفاصيل، فأنتَ بالخيار بين أن تحكم بينهم، لأنَّهم اتَّخذوك حَكَماً، أو تُعرِض عنهم، لأنَّهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتِّباع الحقِّ.

ومثل هؤلاء: لا يُهتَمّ بهم، ولا يُلتفَت إليهم.

﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً﴾:

أي: وإن اخترتَ عدم الحُكْم بينهم، وأعرضتَ عن ذلك، فلن يقدروا على الإضرار بك، لأنَّ الله عاصمُكَ من الناس.

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾:

أي: وإن اخترتَ الحُكم بينهم، فالواجب أن يكون الحُكم بينهم بالعدل، كما أراك الله، قال تعالى: **﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾**

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾:

أي: يرضى عن العادلين فيما ولاَّهم من أحكام، ويحفظهم من كلِّ ما يضرُّهم.)) (انتهى).

فسَّرنا الآية الكريمة (١٥٢) من سورة الأنعام المباركة، فقلنا في تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج١٧/ص٢٥٦، وما بعدها، ما يلي:

((وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾:

هذا أمر من الله تعالى بالعدل والتسوية في الكيل والميزان، عند التعامل بالبيع والشراء.

فلا تطفيف عند الاستيفاء من الغير، ولا نقص عند الكيل والوزن له.

وقوله تعالى: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾

أي لا يطلب الله من عباده ما لا يستطيعون فعله.

وقد جيء بهذا النَّصِّ الكريم -بعد الأمر بالعدل في الكيل والميزان- للإشارة إلى أنَّ مراعاة الدِّقَّة التَّامَّة، فيما يُكَال ويُوزَن، قد يَعسُر تحقُّقُه.

وعلى ذلك، فالمطلوب من المُكلَّف: مراعاة العدل، في ذلك قَدر طاقته، وما وراء ذلك، يشمله عفو الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾:

أي: إذا صدر منكم قول -في قضاء أو شهادة أو غير ذلك- فالتزموا العدل فيما تقولون بدون مُحاباة لأحد، ولو كان أقرب الناس إليكم، والتزموا بما طُلِب إليكم الوفاء به، من أوامر الله

ونواهيه.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾:

أي: ما ذُكِر من التكاليف المُتقدِّمة، أمَركم الله به أمراً مُؤكَّداً، لتتَّعِظوا بما احتوَتْهُ من مصالح دنيوية وأُخروية، فتعملوا بها، وتحرُصوا على أدائها لأنَّ هذه الأحكام لا تختلف باختلاف الأُمم والأزمان، وهي مقرَّرة في جميع الشرائع.)) (انتهى).

بالرجوع إلى تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)، ذكرنا ما يلي في تفسير الآية (٧٦) من سورة النحل المباركة في الجزء٢٣/ص٧٣ وما بعدها:

((وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾:

وهذا مثل آخر مُؤكِّد للمثل الأول في الدلالة على ما دلَّ عليه بأوضح وجه وأظهر بيان.

أي: وذَكَر الله مثلاً آخر يُوضِّح فساد مساواتهم آلهتهم بالله، وهو يتجلَّى في رجلين:

أحدهما: أخرس أصمُّ لا يُفْهِم ولا يَفهَم، وهو مع ذلك لا يقدر على شيءٍ لنفسه أو لغيره من جَلْب نفع أو دفع ضرٍّ لجهله وسوءِ تقديره، وهو لذلك عبءٌ على غيره حيثما يُرسِله مولاه في أمرٍ، فإنَّه لا ينال نُجْحاً ولا يُصيب خيراً.

أمَّا **ثانيهما**: فرجلٌ عاقلٌ له رأيٌ، سليمُ الحواسِّ ينفع نفسه وغيره، يأمر الناس بالإنصاف والعدل، وهو على منهج قويم وسيرة صالحة، هل يستويان؟... وإذا كانا لا يستويان ولا يتشابهان، فكيف يُسوِّي المُشرِكون الصنمَ الأصمَّ الأبْكمَ العاجز عن كلِّ شيء بالله القادر، الذي يُفيض على عباده الكثير من آثار رحمته ونعمته، ويأمرهم بالعدل في توحيده وطاعته في أمرهم كلِّه، وهو فيما يدعوهم إليه على طريق مستقيم مُوصِل إلى خيري الدنيا والآخرة.)) (انتهى).

للإحاطة بموضوع (العدل والإحسان)، وجدنا من المفيد الرجوع إلى تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج٢٣/ص٨٩، وما بعدها، حيث ذكرنا ما يلي:

((أَجمَع آيةٍ في كتاب الله:-

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]

جاء في بعض الأخبار أنَّها أجمع آية للخير والشَّرِّ، وذلك لأنَّها جمعت إجمالاً بين ما يجب عمله من الفضائل وما يتعيَّن تَرْكه من الرذائل.

والعدل الذي يأمر به سُبْحَانَهُ خُلُقٌ جامعٌ لكلِّ الفضائل من

---

[1] سورة النحل/آية/٩٠.

القول والعمل، يغرس في الإنسان حُبَّ الاستقامة والمساواة، والرغبة في طاعة الله، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وإنصاف الناس من نفسه، وإنصاف بعضهم من بعض، وهذا الخُلُق يجعله إذا ما تصرَّف في أمرٍ من الأمور أو تخلَّق بخُلُق يتوسَّط فيه بين الإفراط والتفريط، والعدل استواءُ السريرة والعلانية من كلِّ عامل لله عملاً.. وكما يأمر سُبْحَانَهُ بالعدل ويدعو إليه فإنَّه يأمر بالإحسان، وهو إحسان العمل وإتقان العبادة، أي: الإتيان بها على الوجه المطلوب الذي يَليق بها من حيث الإخلاص لله، وكمال العبودية له، ويشير إلى ذلك، ما رواه البخاري من قوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ): ﴿**الإِحْسَانُ أَن تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَم تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنهُ يَرَاكَ**﴾[1]، هذا بحسب الكيفية، وأمَّا بحسب الكمِّية فبكثرة التطوُّع بالنوافل الجابرة لِمَا قد يقع في الواجبات من شائبة التهاون والنقص أو بالاستزادة من كلِّ ما يُحقِّق للطاعة مراتب الكمال، ويجوز أن يُرَاد به الإحسان إلى الناس والتفضُّل عليهم، وأسمى درجاته على هذا المعنى الإحسان إلى المسيء مع التمكُّن منه والقدرة عليه، وقد أمر بذلك نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله تعالى: ﴿**وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى**﴾

أي أنه يأمر بِصِلَة ذوي الأرحام، على أيِّ درجة كانت قرابتهم، وذلك بإعطائهم ما يحتاجون إليه، لا فرق بين الأقربين

---

[1] بحار الانوار/ج٦٢/ص١١٦.

منهم والأبعدين، ويُشير إلى ذلك ما جاء في النَّصِّ الكريم من طَلَب إعطاء ذي القرابة مُطلَقاً، ولو طَلَبها للأقرباء أو للأقارب أو للأقربين لم يُفِدِ التعميم.

لأنَّ هذه الصِّيَغ تُقيِّد الإحسان لأكثرهم قرابة، فلذا جيء بهذا النِّصِّ الكريم ليعمَّ ذوي القرابة مُطلَقاً، والتصريح بإيتاء ذي القربى مع أنَّه داخل في الإحسان الذي يأمر به الله ﷻ، للاهتمام بشأن صِلة القَرَابة وإعطائها حقَّ قدرها.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾:

أي: ينهاكم عن الفحشاء قولاً وعملاً، والفحشاء: كلُّ ما عَظُم قُبْحه من الذنوب ويكثر إطلاقها على الزِّنى، وكما ينهاكم عن الفحشاء، ينهاكم عن جميع ما أنكره الشَّرع من المعاصي والآثام، وينهاكم أيضاً عن البَغي على الناس ظُلماً وعُدواناً بانتهاك حُرُماتهم، واغتصاب حقوقهم.

وقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾:

جملة مُستأنَفة لبيان الحِكمة في تشريعات هذه الآية الكريمة التي تُعتبَر دستوراً لمكارم الأخلاق.

والمعنى: أنَّه تَعَالَى يُنبِّهكم بما جاء في هذه الآية الكريمة، لكي تتَّعِظوا فتسلُكوا سبيلها وتعملوا بما جاء بها.)) (انتهى).

لتفسير الآية الكريمة (١٢٦) من سورة النحل المباركة، وجدنا من المفيد الرجوع إلى تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير

وتنزيل القرآن)/ج٢٣/ص١٤١، وما بعدها، حيث ذكرنا ما يلي:

((﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾

فَإِنْ عَاقَبْتُمْ

في تفسير القمي، عن رواية أبي الجارود عن الإمام الصادق عليه السلام وذلك أنَّ المشركين يوم أُحُد مَثَّلوا بأصحاب النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم الذين استُشهِدوا، منهم حمزة، فقال المسلمون: أَمَا والله، لَئِنْ أولانا الله عليهم لَنُمثِّلَنَّ بأخيارهم، فذلك قول الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾[1]

ونقل الطوسي في التبيان قولا آخر: قال مجاهد وابن سيرين وإبراهيم: إنَّه في كلِّ ظالمٍ، بغصبٍ أو نحوه.

فإنَّما يجازي بمثل ما عمل، وقيل: إنَّ هذه الآية منسوخة بآية القتال، لأنَّ هذا قبل أن يُؤمَروا بالجهاد، ثم قال: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ﴾، أي: إنْ تركتُم المُجازاة والقَصاص، وتجرَّعتُم مرارته ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ في العاقبة﴾[2]

وهو الرأي الذي ينسجم مع كون السورة مكِّية، ولا آية مدنية فيها، وأمَّا الاستشهاد بآية منها في معركة أُحُد، فهو من قبيل إعادة تلاوتها في حينها عندما أراد المسلمون أن يُمثِّلوا بالمشركين

---

[1] تفسير القمي/٣٩٢، والتبيان للطوسي/٦:٤٣٥.

[2] التبيان في تفسير القرآن/ج٦/ص٤٣٦.

في عام الفتح، لا أنَّ الآية نزلت في المدينة أو بعد الهجرة.

وسواء أكانت هذه الآية الكريمة مكِّية أم مدنية، وسواء أصحَّ نزولها في شأن التمثيل بحمزة أم لم يصحّ، فإنَّ العِبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ووجه اتِّصال هذه الآية بقوله تعالى قبلها: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ**﴾ الآية. أنَّ الدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ لا تكاد تخلو من مُخاصَمة الأعداء ومقابلتهم لها بالعداوة والإيذاء، لأنَّها تتضمَّن رَفْض عقائدهم الباطلة الموروثة، ونَبْذ عاداتهم السَّيِّئة المُورَّثة، ولمَّا كان هذا شديداً عليهم وباعثاً لهم على الخصومة الشديدة، فلهذا أمر الله تَعالى نبيَّه وأصحابه أن يقابلوا إساءتهم بمثلها إنْ أرادوا عقابهم عليها.

والمعنى: وإنْ أردتُّم أيُّها المؤمنون عقاب مَن يَصدُّكم عن دين الله ويعتدي عليكم وأنتم تدعونه إلى سبيل الله، فعاقبوه بمثل ما فعل بكم، وما ناله منكم ولا تجاوزوا هذا المثل بحال، كما قال سُبْحَانَهُ في سورة البقرة:

﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾[1]

وليس ما فعله العدو أولاً عقاباً، ولكن العقاب هو الثاني، لأنَّه هو الذي يَرُدُّ به المسلمون عدوان العدو، عقاباً له ودفاعاً عن

---

[1] سورة البقرة/آية/١٩٠.

دينهم وأنفسهم، وإنَّما سُمِّي اعتداء العدو عقاباً، من باب مماثلة الكلام ومشاكلته، كما سُمِّي جزاء الاعتداء اعتداء في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾[١]، وكما سَمَّى جزاء السَّيِّئَة سيِّئة في قوله سبحانه في سورة الشورى: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا**....﴾[٢].

ولم يقتصر العدل الإلهي على طلب المماثلة في العقوبة، وعدم التجاوز فيها، بل حَثَّ على العفو والصبر؛ فقال سبحانه:

﴿**وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ**﴾[٣]:

أي: ولَئنْ صبرتُم أيُّها الدَّاعون إلى الله تعالى، لَصَبْرُكم هذا هو خير لكم في دنياكم وآخرتكم من الانتصار بالمعاقبة، فإنَّ الصبر والعفو وكَظْم الغيظ من أُمَّهات الفضائل التي يسمو بها العبد، ويرفعه الله بها درجات، ويردُّ بها عدوَّه الألدَّ وليَّاً حميماً وصديقاً مُصافياً.

وإنَّما يحمل العفو عند القدرة، وحيث تدعو إليه المصلحة في عِزة الإسلام وسَمَاحته، ثم أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بالصَّبْر أمراً صريحاً بعد ما ندب إليه من قبلُ تعريضاً، فقال (جَلَّ ثَنَاؤُهُ): ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ**....﴾[٤].

---

[١] سورة البقرة/آية/١٩٤.

[٢] سورة الشورى/آية/٤٠.

[٣] سورة النحل/آية/١٢٦.

[٤] سورة النحل/آية/١٢٧.

لأنَّه (عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ) أَوْلَى الناس بعَزائم الأمور لمزيد علمه بشؤون ربِّه، ووثوقه به.

والمعنى: اصبِرْ أيُّها الرسولُ على ما أصابك من قومك، من إعراضهم عن دعوتك، وايذائهم لك، وما صبرك إلاَّ بمعونته تعالى وتأييده وتوفيقه وتثبيته.)) (انتهى).

لتفسير الآية الكريمة (٢٦) من سورة (ص) المباركة، نُعَرِّج على تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج٦/ص٢٢٣ وما بعدها، حيث ذكرنا ما يلي:

((**﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾**

نَبَّهَ الله تعالى نبيَّه داود(عليه السلام) إلى شرف مسؤوليته وخَطَر وعِظَم رسالته فقال له: **﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾**، أَي: إنَّا أقمناك خليفة عنَّا في الأرض، أو جعلناك خليفة فيها لِمَن كان قبلك من الأنبياء والرُّسُل، تَسُوْسُ وتَرعى عباد الله فيها، وتُبلِغهم ما أُنزِل إليك من ربِّك وتقوم على شأنهم، فاقضِ بينهم بالحقِّ والعدل ولا تَمِلْ أو تَحِدْ عن ذلك، فتتَّبِع هوى نفسك، فإنَّ اتِّباع الهوى والمَيْل إلى شهوة النفس يُبعِدك عن طريق الله السَّوِيِّ وسبيله المستقيم.

وللتنبيه على شَنَاعة الضلال عن سبيل الله وتناهيه في القُبْح

قال له عقب ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾

أي: إنَّ الذين يَزِلُّون عن السبيل الحقِّ وصراطه ويَعدِلون عنه لهم عذاب شديد الإيلام، لأنَّهم نسوا يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة، فعصوا الله وتركوا طاعته، فكان لهم هذا العذاب الأليم والعقاب الشديد.. إنَّه مَلِك من عند الله، ونبيٌّ من عند الله، يَسُوْسُ المُلْك بالنُّبوَّة، ويُؤيِّد النُّبوَّة بالمُلْك.

ولا شكَّ أنَّ هذا فضْل عظيم، ولكنَّه ابتلاء عظيم أيضاً، ولهذا كان هذا الإلفات السماوي لداود، أن يأخذ حذره.

هذا، وتوجيه الله لأنبياءه ورُسُله بالأمر والنهي والإرشاد والنُّصْح لا يَقْدح أبداً في عِصمتهم ولا ينال من رسالتهم، فإنَّ النُبوِّة والرسالة لا تُنافي دوام التذكير من الله تعالى.)) (انتهى).

لإلقاء نظرة عميقة على مَقْصد الآية الكريمة (١٥) من سورة الشورى المباركة، وجدنا من المفيد الرجوع إلى تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج٢٠/ص٦٥، وما بعدها، فذكرنا ما يلي:

((قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

تناولت الآيات السابقة تفرُّق الأُمم فيما جاءَهم به أنبياؤهم، والشَّكّ المُريب الذي عاشوا فيه، ثم جاءت هذه الآية تُرشِد إلى رَفْض هذا السلوك السيِّئ وتحُثُّ على مُدافعته واستئصاله، فالإشارة في قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ﴾، أي: فمن أجل ما ذُكِرَ من التفرُّق، فَادْعُ إلى دين الحقِّ الذي أنتَ عليه.

والمعنى: إذا كان الأمر كما ذُكِرَ، فلأجل ذلك التفرُّق وما جَرَّ إليه من تشعُّبٍ في الكُفر، وشكٍّ مُريبٍ في مُقدَّسات الدين، فادْعُ يا محمَّدُ إلى الاتِّفاق على المِلَّة الحنيفية القديمة والعقيدة السَّمحة القويمة، ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ واثبتْ على هذه الدعوة، والزمْ منهجها المستقيم ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الباطلة ولا تطاوِعْ ميولهم الفاسدة، واحملْ الناس كافَّةً على إقامة ذلك الدين والعمل بموجبه، فإنَّ تفرُّقهم في الدين وكونهم في شكٍّ مريبٍ يُحتِّمان الدعوة إليه والأمر به.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾:

أي: دُمْ على الإيمان بكلِّ كتابٍ من الكُتُب المُنزَلة من الله، لا تُفرِّق بين كتاب وكتاب منها.. وفي هذا القول تحقيق للحقِّ، وبيان لاتِّفاق الكُتُب في الأصول، وتأليف لقلوب أهل الكتابَين، وتعريض بهم حيث لم يؤمنوا بجميعها.

وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾:

أي: وأمرني ربِّي أن أعدِلَ بينكم في فصل القضايا

والخصومات، وفي تبليغ الشرائع والأحكام، فلا أخصُّ بشيءٍ منها شخصاً دون آخر، لأُسوِّيَ بيني وبينكم، فلا آمركم بما لا أعمله، ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾:

أي: خالقنا وخالقكم، ومتولِّي أمورنا وأموركم، لا نَدين إلاَّ به ولا نخضع إلاَّ لأمره.

وقوله تعالى: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾:

أي: لا يتخطَّانا جزاؤها ثواباً أو عقاباً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾:

أي: لا تتجاوزكم آثارها، فنحن لا نستفيد بحَسَناتكم أو نتضرَّر بسيِّئاتكم.

وقوله تعالى: ﴿لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾:

أي: لا خصومة ولا مَحاجَّة بيننا وبينكم لأنَّ الحقَّ قد ظهر ولم يَبْقَ للمحاجَّة حاجة، ولا للخصومة موقع أو مجال ولا للمخالفة مَحمَل سوى المُكابرة.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾:

أي: الله يجمع بيننا جميعاً يوم القيامة للحساب والجزاء وإليه وحده مصيرنا ومصيركم فيظهر هناك حالنا وحالكم، ويفصل بيننا وبينكم، ويلاقي كلٌّ واحد منَّا جزاءه من الثواب أو العقاب في هذا المصير المحتوم.)) (انتهى).

من أجل فهم مقاصد الآية الكريمة (٩) من سورة الرحمن المباركة، وجدنا من النافع الرجوع إلى تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج(٣٥)/ص٢١١، وما بعدها لتوضيح ذلك:-

((قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ*أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ*وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾

المراد من السماء هنا: ما جعلت الكواكب زينة لأولاها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[١]

والمراد من رَفْعها: الرفع الحِسِّيّ، بحيث نراها فوقنا بعيوننا أو الحِسِّيّ والمعنوي -أي: الرُّتَبي- فمرتبة السماء ومقامها عالٍ، لأنَّها منشأ أحكامه تَعَالَى وأوامره، ومَسْكن ملائكته (عَزَّ وَجَلَّ) فما أعظم ملكوت القادر العليم.

والمراد من (وَضْع الميزان): شرع العدل في الأمر كلِّه، والعدل هنا: هو تقويم الأُمور وجعلها متلائمة متعادلة لا إفراط فيها ولا تفريط، لا تفاوت يُخِلُّ بها ويُفسِدها.

وهو بهذا المعنى يشمل خلق السموات والأرض وغيره، فالسموات متلائمة في تكوينها لا عيب فيها، وفي ذلك يقول الله سُبْحَانَهُ: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾[٢]

---

[١] سورة الملك/آية/٥.

[٢] سورة الملك/آية/٣.

أي: هل ترى في خلقها من شقوق وعيوب تُخِلُّ بها؟!...

وقيل: إنَّ المراد بالميزان هو شَرَعَ العدل وأَمَرَ به، بأنْ وَفَّرَ على كل مُستَعِدٍّ مُستَحقَّه، ووفَّى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، حتى انتظم أَمْرَ العالَم واستقام، فالمراد عَدْل الله (عَزَّ وَجَلَّ) وإعطاؤه سبحانه كلَّ شيءٍ خلقه.

وقيل معناه: وشَرَع القرآن، لأنَّ فيه بيان ما يحتاج إليه.

وقيل أيضاً أنَّ المراد بالميزان ما يُعرَف به مقادير الأشياء، من الآلة المعروفة والمِكيال المعروف ونحوهما، فمعنى: ﴿**وَوَضَعَ الْمِيزَانَ**﴾: خلقه مخفوضاً على الأرض، حيث عَلَّقَ به أحكام عباده وقضاياهم المُنْزَلة من السماء، وما تَعَبَّدهم به من التسوية والتعديل في أخذهم وعطائهم.

الرأي المختار

ونرى أنَّ المعنى الأول هو المناسب، حتى لا يتكرَّر مع قوله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**﴾، كما أنَّه هو المناسب لِمَا قبله من رَفْع السماء، أمَّا ميزان الناس فلا يناسب ما قبله، والفجوة واسعة بينهما.)) (انتهى).

بيَّنَّا في تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج٣٤/ص١٨٤، وما بعدها تفسير الآية الكريمة (٢٥) من سورة الحديد المباركة، فقلنا:

((قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ**

الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

فصلت الآيات السابقة فريق العُصاة المُكذِّبين وفريق الطائعين المُصدِّقين، وعرضت لِوَصف الدنيا وحقارتها وسرعة انتهائها، وخوَّفت من الافتتان بها، والاطمئنان لها إذ تناولت ذِكْر الجنَّة ونعيمها، ونادت بالتسابُق إليها، والإسراع في طلبها، والتمتُّع بنعيمها، وبقيَ المقام مُحتاجاً إلى تنظيم العمل، وتفصيل السلوك الذي يُباعِد بين العبد وارتكاب المعاصي، ويقرِّبه من ربِّه ويُؤهِّله للعمل عن تدبُّر، ويُوضِّح له طريق الخير، وطريق الغِواية، ليختار لنفسه حتى لا يكون له على الله حُجة ﴿.....**فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾[1]، فجاءت هذه الآية تُبيِّن فضل الله تعالى على خَلْقه، بتتابع الرسالات وإنزال الكُتُب والميزان لإقرار العدل، فلا يبغي أحدٌ على أحدٍ، كما جاءت تُبيِّن إنعام الله بالنِّعم الجليلة التي تجمع لهم القوة والمَنَعَة مع الرَّخاء والمنفعة.

ذِكْرُ الحديد.. وخصوصيته

وفي تخصيص الحديد بالذِّكْر، مقروناً بالبأس والمنفعة لمحة إلى أنَّ فيه من مُعدَّات القوَّة ما يحرُس الأمن ويحفظ التوازن بين

---

[1] سورة الفتح/آية/١٠.

الأفراد والجماعات والأُمم، والحديد أصلٌ وأساسٌ لكلِّ تقدُّمٍ صناعيٍّ وحضاريٍّ، ولذا كان جديراً أن تُسمَّى به السورة دون غيره من الأمور التي ذُكِرت فيها أو عَرَضَت لها.

والمعنى: لقد كان فَضْلُنا على الخَلْق، وإنعامنا عليهم أن أرسلنا رُسُلنا من الملائكة إلى الأنبياء، أو من الأنبياء إلى أُممهم داعين ومُرشِدين وأيَّدناهم بالمعجزات، والحُجَج الباهرات الواضحات التي تُؤكِّد صِدْقَهم، وتُحتِّم تصديقَهم، وذلك ليَدْعوا الناس إلى الخير ويُوجِّهوهم للهداية وسلامة السلوك الذي يَكفُل لهم راحة دنياهم، وسلامة آخرتهم، وأنزلنا مع الرُّسُلِ الكُتُبَ التي تحفظ رسالتهم، وتشرح دعوتهم، وتُؤكِّد صِدْقهم من التوراة والإنجيل والقرآن، وسائر الكُتُب والألواح والصُّحُف السماوية التي نزلت مع الرُّسُل، كما أنزلنا آلة الوزن لِيلتزم الناس بالعدل، ويقوم عليه التعاون والتعامل، ويمتنع الظلم والعدوان.

والمراد بالميزان العدل والمساواة بين الناس في التعامل.

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾: أي خلقناه كقوله تعالى: ﴿....**وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ**....﴾[1]، وذلك أنَّ أوامره تعالى وقضاياه وأحكامه تنزل من السماء.

ومعنى: **﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾**: أي: قوَّة ومَنَعَة، لأنَّ آلات الحروب تُتَّخَذ منه، وهذا إشارة إلى احتياج الكتاب والميزان إلى

---

[1] سورة الزمر/آية/٦.

قوَّةٍ تحميها، ليحصل القيام بالقِسط، فإنَّ الظُّلم من شِيَم النفوس، ومَن لم يدافعْ عن نفسِه.. بِسِلاَحِهِ يُهدَّمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾، أي: مصالح تنفعهم في معاشهم وتيسير أعمالهم إذ ما مِن صنعةٍ إلاَّ والحديد أو ما يُعمَل بالحديد آلتها، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ القيام بالقسط كما يحتاج إلى القائم بالسيف، لِيحفظ العدل، يحتاج إلى ما به قيام التعايش ليتمَّ التمدُّن الذي يحتاجه بقاء النوع.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾: هذه الجملة معطوفة على محذوفٍ، يدلُّ عليه السِّياق، أو الحال، لأنَّها مُتضمِّنة للتعليل.

والمعنى: فعل الله ذلك ليُيسِّر حياتهم، وينفعهم، ويقطع حُجَّتهم، وليعلم الله علماً يتعلَّق به الجزاء، ويترتَّب عليه الثواب والعقاب ليعلمَ مَن ينصره بالتوحيد والطاعة، وينصر رُسُله بالتصديق واتِّباع ما جاءُوا به دون أن ينظر الله ويبصره.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، أي: إنَّ الله قادر لا يُعجِزه أمر ولا يفوته هارب، مَنِيع لا يغلبه غالب ولا يُدرِكه طالب، وهذا تذييل جاء تحقيقاً للحقِّ وتنبيهاً على أنَّ التكاليف ليست لحاجته تعالى إلى نُصرتهم في إعلاء كلمته، وإظهار دينه، بل إنَّما جاء ذلك لِيصلوا بالتكاليف إلى الثواب، فإنَّ الله غنيٌّ بقدرته وعِزَّته عمَّا سواه في كلِّ مايريده.)) (انتهى).

لقد تناولت الآية الكريمة (٨٣) فى سورة البقرة المباركة

موضوع (الميثاق) أو (العهد)، وقد حذَّر القرآن الكريم في الكثير فى آياته الكريمة من مَغَبَّة نَقْض المواثيق والعهود.

ومن هذه الآيات، الآية المذكورة أعلاه، وقد فصَّلنا تفسير هذه الآية المباركة في تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج٢٧/ص٢٨٧، وما بعدها، فقلنا:

((﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾

أهمُّ الشرائع الإلهية

سَرْدٌ لأهمِّ مقاصد الشَّرْع وأحكامه الإلهية الأبدية، وكيف خالفها اليهود، لذلك كان الشروع في ذِكْر بعض القبائح التي ورثها اليهود المعاصرون للرسول عن أسلافهم، ممَّا يجعل الإيمان مُستبعَداً منهم ويحمل المؤمنين على ألاَّ يطمعوا فيه، وذلك أنَّهم تولَّوا مُدبِرين عمَّا أخذ عليهم العهد به من الفضائل ومَن كانوا كذلك، فلا ينبغي أن يطمع المؤمنون في إيمانهم.

ومعنى الآية: أي واذكروا أيُّها المؤمنون، وقت أنْ أخذنا ميثاق بني إسرائيل، وعاهدناهم عهداً مُؤكَّداً في التوراة: ﴿لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ﴾، أَي: وقلنا لهم في العهد: لا تعبدون إلاَّ الله،

والمقصود منه: نهيهم عن عبادتهم لغيره تعالى، فهو نفيٌ بمعنى النهي، أي: لا تعبدوا غيره تعالى، وهذا نظير قولك لشخص: تذهب إلى فلان وتقول له كذا، فهو بمعنى: اذهبْ إليه وقلْ له كذا، وهو أَبلغُ من صريح النَّهي، لِمَا فيه من الإيذان بأنَّه ينبغي أن يسارع المنهيُّ إلى الامتثال حتى يُخبِر عنه بأنَّه امتثل فعلاً، وانصرف عمَّا نُهِيَ عنه.

والميثاق بالتوحيد وغيره من العقائد وأُمَّهات الشرائع والأخلاق، مأخوذ على جميع الأُمم، كما أُخِذ على بني إسرائيل، فلا خِلاف بينها إلاَّ في فروع الشرائع، فإنَّها تختلف تبَعَاً للزمان والأجيال، رعاية لمصلحة البشر، بحسب التطوُّر الإنساني.

والمراد من أَخْذ الله الميثاق عليهم بالأمور الآتية: توصيتهم بالعمل بها توصيةً مُؤكَّدةً في التوراة التي أنزلها على موسىعليه السلام، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾: وأخذ الله عليهم العهد أيضاً بأن يُحسِنوا إلى الوالدين، وهذا الإحسان المأمور به عامٌّ يدخل فيه جميع ما يجب لها من أنواع الرعاية والعناية، وقد قرن اللهتعالى الأمر بالإحسان إلى الوالدَين بالأمر بعبادته، لِمَا للوالدَين من الفضل الكبير على الولد، لأنَّهما بَذَلاَ الكثير من العناية الصادقة في تربيته والقيام بشؤونه، أيام أنْ كان ضعيفاً عاجزاً، وكَفَلاَه حتى قدر على الاستقلال، والقيام، بشؤون نفسه، مع الحنان العظيم، لا يبغيان من وراء ذلك أيَّة مصلحة تعود عليهما، فهما أحقُّ بالعناية والرعاية،

وما جزاء الإحسان إلاَّ الإحسان

وتنكير الإحسان في قوله: ﴿إِحْسَانًا﴾، للإيذان بتعميمه، وإبلاغه، إلى أقصى مَدَاه.

﴿وَذِي الْقُرْبَى﴾: أي وأوصيناهم بالإحسان كذلك إلى ذوي القُربى، وهم مَن تكون بينهم وبين الإنسان صِلة قَرابة من جهة الأب أو الأُمّ، والإحسان إليهم هو: القيام بما يحتاجون إليه بقدر الطاقة، وذلك تقويةً للروابط بين الأقارب، ولأنَّ مَن لا خير فيه لذوي قرابته فلا خير يُرجَى منه لغيرهم.

﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾: أي وأخذ عليهم الميثاق أيضاً بالإحسان إلى اليتامى والمساكين.

واليتامى هم الذين مات آباؤهم وهم في دون البلوغ، فهم لهذا في أَمَسِّ الحاجة إلى الإحسان، ويكون بالكلمة الطيبة، والتوجيه الرشيد والرعاية الحانية، والمعونة بالمال، إن احتاجوا إليها.

وفي القرآن والسُّنَّة كثير من الوصايا باليتامى، لِيجدوا من المُسلِمين الكُرماء العاملين بدينهم، ما يُعوِّضهم، عن فَقْد آبائهم، ولأنَّ الإحسان إليهم والرحمة بهم حماية للمجتمع، حتى لا يكونوا عنصرَ شَرٍّ وإفسادٍ فيه.

ومن أهل الحاجة الذين أوصاهم الله بالإحسان إليهم أيضاً: المساكين الذين لا يقدرون على الكَسْب، أو لا يكفيهم ما يكسبونه، ففي العناية بهم تعاون وتكافل وإقامة للمجتمع على أُسُسٍ من

التوادِّ والتراحم.

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾: ومن جملة الميثاق الذي أُخِذ عليهم: أن يقولوا للناس قولاً حسناً، كالنصيحة لهم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكَر، مع التزام الحِكمة والمَوعظة الحَسَنَة ولِين الجانب، والمُخاطَبة بما تطيب به نفوسهم، وعدم الإساءة إليهم بالقول والخشونة، فإنَّ الفظاظة والغِلظة لا تَليق بأهل الشرائع السماوية.

وقد اشتمل الميثاق على وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة والتوحيد، وهو الأهمُّ، ولذلك قَدَّم الأمر به على سواه، ثم عطف عليه الأمر بالإحسان إلى العباد في معاملتهم.

ولَمَّا كانوا متفاوتين في ذلك، بدأ بأحقِّهم وهما الوالدان، ثم أتبعهما ذوي القربى، رعاية لِحَقِّ القَرَابة، ثم اليتامى لضعفهم، ثم المساكين سدَّاً لحاجتهم، ثم سائر الناس بما هو مقدور لكلِّ أحدٍ، وهو الإحسان بالقول، بأن يلقوهم بالطَّيِّب من القول ويجتنبوا إيذاءهم، فهذا النوع من الإحسان سهل هيِّنٌ على النفوس، يقدر عليه كلُّ إنسان، ويستطيع أداءه في كلِّ حال، فلا عُذرَ لتاركه.

ومن أهمِّ المقاصد للشرائع السماوية أنَّها تكون أولاً: داعية إلى تطهير العقول والقلوب من رِجس الوثينة، وإخلاص العبادة لله وحده.

وتكون ثانياً: لإصلاح المجتمع، وأول إصلاحه: رعاية الأقارب

والضعفاء، واليهود لا يفعلون ذلك.

وممَّا أخذ الله به الميثاق على اليهود، وفَرَضَه عليهم في كتابهم، ما حكاه بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾: وإقامة الصلاة: أداؤها تامَّة مُستوفية الشرائط والأركان، وإيتاءُ الزكاة: إعطاؤها لمُستحقِّيها.

والصلاة التى أُمِر بنو إسرائيل بإقامتها، والزكاة التي أُمروا بإتيانها هما: الصلاة والزكاة المشروعتان في ديانتهم.

وقد ذَكَر ذلك كله، لِيُعقِّب عليه: أنَّهم أعرضوا عمَّا أخذ عليهم الميثاق بأدائه، كما سيجيء، حتى يعلم المؤمنون أنَّ نقض اليهود لمواثيق الله مرض قديم فيهم، فلا ينبغي للمؤمنين أن يطمعوا في إيمانهم.

ومع أنَّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة داخلان في عبادة الله التي أخذ بها الميثاق على بني إسرائيل، فإنَّه تعالى -أفردهما بالذِّكْر- بعد الإحسان إلى الوالدَين والأقربين وأصحاب الحاجات، لعِظَم شأن هاتين العبادتين، ولِمَا للصلاة من الأثر الكبير في تربية النفس، والنهي عن الفحشاء والمُنكَر، والخشوع لعَظَمَة الله، ولِمَا في الزكاة من تخفيف ويلات الفقر والبؤس عن المحتاجين، وحُسْن الصِّلة بالمجتمع عن طريق الإحسان إليه.

هذا هو الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل في التوراة، فماذا كان من شأنهم؟...

هل التزموا العمل بهذا الميثاق؟...

إنَّهم لم يلتزموه، وكانت حالهم كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾: فقد أفصحت الآية عمَّا كان من أكثرهم -بعد أخذ الميثاق عليهم، بما فيه خيرهم وسعادتهم- وهو أنَّهم تَولَّوا عن العمل به، وهم مُعرِضون غير مُكترِثين بما يترتَّب على إعراضهم.. أمَّا القليلون منهم فإنَّهم التزموا العمل بالميثاق، وحافَظوا على تنفيذه، وهم المُخلِصون في إيمانهم من أسلافهم قبل أن تُنسَخ شريعتُهم بالإسلام ومَن آمن منهم بمُحمَّد صلى الله عليه وآله وحافظ على هذا الميثاق الموجود في سائر الأديان، كعَبْدِ اللَهِ بْنِ سَلامٍ وزَيْدِ بْنِ سُعْنَةَ.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ لتأكيد تَولِّيهم، أي: ثم تولَّيتُم وأعرضتُم عن تنفيذ هذا الميثاق، وأنتُم قوم عادتكم التَّولِّي والإعراض عن المواثيق، وهي عادة ورِثتُموها عن آبائكم ويُؤخَذ كونه عادة لهم من الجملة الإسمية الدَّالَّة على الثبوت.

وفي الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب للحاضرين من اليهود في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾، لأَنَّهم خَلف لهؤلاء السابقين، في السير على نهجهم في نقض العهود وعدم احترام المواثيق فكأنَّهم هم، فلذا خُوطِبوا بتولِّيهم وإعراضهم.)) (انتهى).

يُعتبَر موضوع الدعاء أو الطلب من الله تعالى أحد المواضيع التي تُؤكِّد ارتباط العبد بخالقه، فدائماً الإنسان المؤمن يلجأ الى الله تعالى،

وقد أكَّدت ذلك الآية الكريمة (٦٠) من سورة غافر المباركة، وقد بسَّطنا هذا الموضوع في تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج١٩/ص٢٥٢، وما بعدها، فذكرنا ما يلي:

((﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ * إِنَّ السَّاعَةَ لآَتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

لمَّا كان البعث من مواضع جدَلهم الواسع، ومُكابرَتهم الزائفة نَاسَبَ أن تأتيَ هذه الآية بعد آية الجدل تحقيقاً للحقِّ وتبييناً لأشهر ما يجادلون فيه جهلاً وعناداً من غير اعتماد على علمٍ أو استنادٍ إلى برهان، على منهاج قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ.....﴾[1]

والمعنى: لَخَلْقُ السموات والأرض على اتِّساعهما، وامتداد طولهما وعرضهما، وحِكمة نظامهما وما يحتويان من كائنات عظيمة، وما يختلف عليهما من تغايُر أطوار، وتبايُن أحوال، وما يقع فيهما أو عنهما من أحداث.

لَخَلْقُ هذا كلِّه أكبرُ وأعظمُ من خَلْقه تعالى الناس، لأنَّ الناس بالنسبة إلى تلك الأجرام العظيمة والأحداث الهائلة كـ(لا شيء).

---

[1] سورة يس/آية/٨١.

والمراد: أنَّ مَن قَدَر على خَلْق ذلك فهو سُبْحَانَهُ على خَلْق ما لا يُعَدُّ شيئاً بالنسبة إليه بدءً وإعادةً أقدر وأقدر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾:

أي: ولكنَّ أكثر الناس من الكَفَرة والمشركين لا يعلمون شيئاً من هذا، ولا يتدبَّرونه تدبُّراً يهديهم إلى الحقِّ، ويردُّهم إلى الإيمان والتصديق، فهو الذي تقتضيه الحِكمةُ اقتضاءً ظاهراً، ولكنَّهم لا يفقهون.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾:

نَفَتْ الآيةُ السابقة العِلْم عمَّن عطَّلَ عقلَه، وجمَّد فِكْره، فلم ينظر في آيات الله نظرة تأمُّل، ولم يُعمِّقْ التفكير في قدرته الظاهرة في مخلوقاته، وجاءت هذه الآية تُبرِز هذا المعنى بالقياس بين الأعمى والبصير، وبين المُحسِن والمُسِيء، لِيستبينَ الحقَّ من الباطل.

والمعنى: وما يستوي الأعمى الذي لا يُبصِر مباهجَ الحياة وجمالها، ولا يعرف عدوَّه من صديقه، ما يستوي هذا الأعمى مع البصير الذي له عينان تجولان في أرجاء الكون، وتنطبِع على ناظريهما آياته ويشاهد بهما البساتين وزهورها وثمارها، ويتمتَّع بصفحات الجمال في كلِّ الكائنات علويِّها وسفليِّها، ويرى صديقه، فيلاقيه، ويُبصِر عدوِّه فيتَّقِيه، وإذا كان هذان لا

يستويان في الاستفادة من آيات الحياة الدنيا والشعور بجمالها وجلالها والاستمتاع بها، فالأعمى محروم والبصير يتقلَّب في النعيم، وإذا كان هذان لا يستويان، فمثلهما المؤمن الذي يعمل الصالحات في دنياه، فينعم في الدنيا بحياته ويخلُد في الجنَّة بعد مماته، فلا يستوي مطلقاً مع الكافر المسيء إلى نفسه وإلى ربِّه في حياته، الخالد في النار بعد مماته ﴿قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، فلا تُدرِكون الحقائق على وجهها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لآَتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾:

أي: إنَّ القيامة آتيةٌ واقعةٌ لا شكَّ في حدوثها، ولا ريب في وقوعها البتَّة، لوضوح ظواهرها، وإجماع الرُّسُل على الوعد بوقوعها ولكنَّ أكثر الناس من الكفَّار والمُعانِدين لا يؤمنون بحدوثها، ولا يُصدِّقون بوقوعها لقصور أنظارهم، واستيلاء الأوهام على عقولهم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾:

هذه الآية الكريمة توجيه من الله لخَلْقه أن يَضَّرَّعوا إليه بالدعاء ويَجْأَروا له بالرجاء، تعظيماً لقدرته واعترافاً بعجزهم وحاجتهم إلى عطائه وفضله.

والمعنى: وقال ربُّكم ادعوني، أي: اعبُدوني، والدعاء بمعنى

العبادة، كثيرٌ في القرآن الكريم، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، والاستجابة: الإثابة.

ويجوز أن يُرَاد الدعاء والاستجابة على ظاهرهما، ويُرَاد بعبادتي دعائي، لأنَّ الدعاء بابٌ من أبواب العبادة، ومن أفضل أبوابها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، معناه: إنَّ الذين يستعلون عن عبادتي ويتعاظمون على توحيدي وطاعتي أو على دعائي والتضرُّع إليَّ سيدخلون جهنَّم أذلاَّء صاغرين لا يُغنِي عنهم تكبُّرهم من دخولها ولا يدفع عنهم من عذابها.)) (انتهى).

إنَّ العلاقة التى تربِط الإنسان بالخالق تعالى مُتعدِّدة الوجوه، ومن هذه الوجوه استشعار الإنسان بالحاجة الى اللهﷻ في السَّرَّاء والضَّرَّاء وذلك من أجل إدامة علاقة التواصل بين الإنسان وخالقه. وللتوسُّع في هذا الموضوع، وجدنا من المفيد الرجوع إلى تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج١٠/ص٣١، وما بعدها، لتوضيح هذه الفكرة، فذكرنا ما يلي:

((قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامَاً﴾[1]

تحدَّثت السورة، منذ شروعها، عن الرِّسالة النَّبوية والقرآن، تنويهاً ولَفْتاً للعقول وتذكيراً للضمائر فشرحت معاني التوحيد

[1] سورة الفرقان/آية/٧٧.

وحقيقته، ثم وصفت المُعانِدين وتكبُّرهم عن قبول الحقِّ، وتكبُّرهم في أنفسهم وغرورهم وتسويغاتهم ومبرِّراتهم الفارغة، ثم وصفت المؤمنين بآيات مُفصَّلة مُرتَّلة مُتتابعة بأكمل وصف جاء في القرآن.

بعد ذلك أصبح لِزاماً تعريف المُشركين المُتكبِّرين بحجمهم الحقيقي، ومكانتهم عند الله تعالى، فأوضحت أنَّهم لا شيء أمام قدرة الله تعالى وجبروته، وأنَّهم من الحقارة والصغر بحيث أنَّهم لا وزن لهم في ميزان الحقِّ والقدرة الإلهية، فلْينتبِهوا لأنفسهم، ولْيعرِفوا مواقع أقدامهم، ولْيفطِنوا إلى أنَّ الله تعالى لا يعبأ بهم، ولا بقوَّتهم ولا سُلطانهم إذ كان سلطاناً محدوداً بحدود البشرية الناقصة، المُحاطة بالعدم من جهة وبالموت من جهة أخرى.

والاستثناء في قوله تعالى: ﴿لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ﴾: يفيد أنَّه يعبأ بكم بالقدر الذي فيه نجاتكم، من جهة أنَّه يريد دعاءكم للهِداية والصلاح والنجاة من النار يوم القيامة، فالدعاء هنا مشتقٌّ من الدعوة، والمقصود الدَّعوة إلى الإيمان والإسلام.

وبما أنَّكم، أيُّها المُعانِدون، كذَّبْتُم الداعيَ ورفضتُم الدعوةَ، فإنَّ عدم العبأ بهم، أي: عدم الاهتمام بهم، سيكون لزاماً وأمراً مقضيَّاً، واللِّزام هو تحمُّلهم نتيجة تكذيبهم الداعي ورفضهم للدعوة التي فيها مجدهم ونجاتهم وصلاحهم.

وعواقب ذلك التكذيب ستقع بهم في الدنيا أولاً، وفي الآخرة

ثانياً، أمَّا في الدنيا فقد حصل ذلك في معركة بدر، وأمَّا في الآخرة فإنَّ وعد الله تعالى مُحقَّق لا محالة، فهو بمثابة الوقوع الفعلي والتحقُّق الوجودي منذ إنشاء الوعد الإلهي.

والمعنى: قُلْ أيُّها النَّبيُّ الكريم مُخاطِباً المشركين، إنَّ الله تعالى لا يكترث لأمركم لولا أنَّه يريد هدايتكم فخاطبكم على لسان نبيِّه ودعاكم إلى النجاة، فلمَّا كذَّبْتم الداعيَ ورفضتُم الدعوةَ الإلهيةَ فقد حَلَّ عليكم غضبه ونقمته، وأصبحت حتماً مقضياً ما دمتُم مكذِّبين معانِدين.)) (انتهى).

لقد بيَّن القرآن الكريم خصائص شخصية الرسول محمَّدﷺ للناس لِيتأسَّوا به، كما أكَّد القرآن الكريم بأنَّ الرسولﷺ هو إنسانٌ مخلوقٌ كباقي البشر، ومن أجل الإحاطة بهذه الفكرة اقتبسنا تفسير الآيتين الكريمتين (١٢٨)، و(١٢٩) من سورة التوبة المباركة من تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج٣٩/ص٣١٥ وما بعدها، فذكرنا ما يلي:

((﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

أي: لقد جاءَكم يا معشرَ العرب رسولٌ منكم عربيٌّ مثلكم ومن أكرم بيتٍ فيكم، وقد نشأ بينكم فعرفتُموه منشأ وخُلُقاً، وهذا الرسول يشقُّ عليه كثيراً ما يشقُّ عليكم، حريصٌ عليكم فلا يُفرِّط في أمرٍ

فيه خيركم ومنفعتكم، وبالمؤمنين منكم ومن غيركم، عظيم الرأفة والشفقة، وافر الرحمة.

ويرى بعض المُفسِّرين: أنَّ الخطاب في قوله تعالى:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ .....﴾

للناس عامَّة، لأنَّ بِعثَته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) عامَّة لجميع الناس في جميع العصور، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] وهو المعنى الراجح عندنا.

والمعنى: لقد جاءَكم أيُّها الناسُ رسولٌ من أنفسكم، أي: من جنسكم، بشر مثلكم، إذ لو كان من الملائكة، لضعُفتْ قُوَّة البشر عن سماع كلامه والأخذ عنه، ولا تعارُض في هذا الرأي مع الرأي السابق، فإنَّ رسالته للعرب لا تُنَافِي رسالتَه للنَّاس أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾:

أي: فإن أعرضوا عن الإيمان بك يا محمَّدُ، فقلْ لهم: يكفيني الله ويُعينني عليكم، لا معبودَ بحقٍّ سواه، عليه وحده توكَّلتُ واعتمدتُ، فلا أرجو سواه، ولا أخاف إلاَّ منه، ولا أستعين إلاَّ به، وهو ربُّ العرش العظيم.

والمراد من العرش: إمَّا الفلك الأعظم الذي تتنزَّل منه الأحكام والمقادير، أو السلطان والمُلْك العظيم.

---

[1] سورة الأنبياء/آية/١٠٧.

قال الفخر الرازي: (فَإِنْ قَالُوا: العَرْشُ غَيْرُ مَحْسُوس فَلاَ يُعْرَفُ وُجُودُهُ إِلاَّ بَعْدَ ثُبُوتِ الشَّرِيعَةِ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ ذِكْرُهُ فِي مَعْرِضِ شَرْحِ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى؟... قُلْنَا: وُجُودُ العَرْشِ أَمْرٌ مَشْهُورٌ وَالكُفَّارُ سَمِعُوهُ مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَلاَ يَبْعُدُ أَيْضاً أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ سَمِعُوهُ مِنْ أَسْلاَفِهِمْ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ قَرَأَ قَوْلَهُ: (العَظِيم) بِالرَّفْعِ، لِيَكُونَ صِفَةً لِلرَّبِّ سُبْحَانَهُ).)) (انتهى).

يُعتبَر مفهوم الرحمة من المفاهيم الإيمانية التي أكَّدت عليها جميع الرسالات السماوية، وكان للإسلام الحنيف النصيب الأكبر في التأكيد على مبدأ الرحمة والتراحم بين الناس وبين جميع أفراد المجتمع، ثم تتوسَّع هذه الدائرة لِتشملَ جميع الشعوب والأُمم، ولغرض الوقوف على معنى الرحمة حسب التصوُّر القرآني، وجدنا من النافع أن نُعرِّجَ على تفسير الآيات الكريمة (١٢٨) من سورة التوبة المباركة، والآية (٢٩) من سورة الفتح المباركة، وكذلك تفسير الآية (١٧) من سورة البلد، كما وَرَدَ في تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج٣٥/ص١٦٨، وما بعدها:

((وقوله تعالى: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**.....﴾

مُحمَّد رسول الله

في مفاوضات الصُّلح أنكر المشركون أن يكون مُحمَّدٌ رسول

الله، ورفضوا كتابة ذلك في وثيقة الصُّلح كما مَرَّ، فجاءت هذه الآية والتي قبلها لتقول: ﴿....**وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا**﴾[١]، أي: على نبوّتك، ثم صرَّحتْ هذه الآية وأكَّدتْ بالاسْم: أنَّ مُحمَّداً رسولٌ من اللهﷻ، وجاء ذلك بعد أن ذكرت الآيات السابقة صفات مُتعلِّقة بالرسول من دون ذِكْر اسْمه، فعُرِّفت هذه الآية بِاسْمه.

ومعنى الآية هو مُحمَّد الذي وُصِف بالرسالة في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ**....﴾[٢]، وفي قوله (جَلَّ شَأْنُهُ): ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ**﴾[٣] وجاء النَّصُّ في هذه الآية بالتصريح بذِكْر اسْم الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) تفخيماً لشأنه وزيادة في إنزال السَّكِينة والطُّمأنينة في قلوب المؤمنين، بعثاً للرجاء لدى بعض الشَّاكِّين المُتردِّدين كي يَثْبُتوا على الإسلام، فضلاً عن أنَّ ذلك يغيظ قلوبَ الحاسدين والحاقدين على رسولهﷺ.

وجاء وصف الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، ومَن معه بأنَّهم أشِدَّاء على الكفَّار لِقَطْع أمل الكفَّار ورجائهم في أن يُداهِنهم أو أن ينزل ويتجاوز عن بعض ما جاء به، وقد أمر اللهُ رسوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) في غير هذه الآية بالغِلظة على الكفَّار فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ**

---

[١] سورة الفتح/آية/٢٨.

[٢] سورة الفتح/آية/٢٧.

[٣] سورة الفتح/آية/٢٨.

وَاغْلُظْ....﴾[١]، كما وصفه ربُّه (جَلَّ وَعَلاَ) بالرحمة والرأفة بالمؤمنين، فقال: **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾**[٢].

أمَّا صحابته فشأنهم معه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) هو الطاعة والتَّأسِّي وبَذل النفس والمال في سبيل الله، وقد قال الله في حقِّهم: **﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾**[٣].

وشِدَّة الرسول (عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ) ومَن معه على الكفَّار تكون عند ملاقاتهم في الحروب، فلا تضعف عزائمهم ولا تلين قَنَاتُهم، فالمؤمن قد وعده الله إحدى الحسنيين، إمَّا الشهادة والموت في سبيل الله، أو الظفر والنصر.

وقوله تعالى: **﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾** أي: يتراحمون فيما بينهم، فلا يَبغي بعضُهم على بعضٍ، فهم في تعاطُفٍ وتوادٍّ كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تَدَاعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وفي تفسير فرات الكوفي: (عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ (عَلَيْهِ السَّلاَمُ) أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: **﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا.....﴾**، قَالَ: [فَقَالَ]:-

﴿مَثَلٌ أَجْرَاهُ اَللَّهُ فِي شِيعَتِنَا كَمَا يُجْرِي لَهُمْ فِي اَلأَصْلاَبِ

---

[١] سورة التحريم/آية/٩.

[٢] سورة التوبة/آية/١٢٨.

[٣] سورة المائدة/آية/٥٤.

ثُمَّ يَزْرَعُهُمْ فِي اَلأَرْحَامِ وَيُخْرِجُهُمْ لِلْغَايَةِ اَلَّتِي أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَهُمْ فِي اَلْخَلْقِ فَمِنْهُمْ أَتْقِيَاءُ [وَ] شُهَدَاءُ وَمِنْهُمُ اَلْمُمْتَحَنَةُ قُلُوبُهُمْ وَمِنْهُمُ اَلْعُلَمَاءُ وَمِنْهُمُ اَلنُّجَبَاءُ وَمِنْهُمُ اَلنُّجَدَاءُ وَمِنْهُمْ أَهْلُ اَلتُّقَى وَمِنْهُمْ أَهْلُ اَلتَّقْوَى وَمِنْهُمْ أَهْلُ اَلتَّسْلِيمِ فَازُوا بِهَذِهِ اَلأَشْيَاءِ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اَللَّهِ وَفُضِّلُوا بِمَا فُضِّلُوا وَجَرَتْ لِلنَّاسِ بَعْدَهُمْ فِي اَلْمَوَاثِيقِ حَالُهُمْ أَسْمَاؤُهُمْ حَدُّ اَلْمُسْتَضْعَفِينَ وَحَدُّ اَلْمُرْجَوْنَ لأَمْرِ اَللَّهِ حَدّاً [إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ] وَإِمَّا أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ وَحَدٌّ عَسَى أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ وَحَدٌّ لاَبِثِينَ فِيهَا [أَبَداً وَحَدٌّ لاَبِثِينَ فِيهَا] أَحْقَاباً وَحَدٌّ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ اَلسَّمَاوَاتُ وَاَلأَرْضُ ثُمَّ حَدُّ اَلاسْتِثْنَاءِ مِنَ اَللَّهِ مِنَ اَلْفَرِيقَيْنِ مَنَازِلُ اَلنَّاسِ فِي اَلْخَيْرِ وَاَلشَّرِّ خَلْقَانِ مِنْ خَلْقِ اَللَّهِ فِيهِمَا اَلْمَشِيَّةُ فَمَنْ شَاءَهُ مِنْ خَلْقِهِ فِي قِسْمِهِ مَا قُسِّمَ لَهُ تَحْوِيلٌ عَنْ حَالٍ زِيَادَةٌ فِي اَلأَرْزَاقِ أَوْ نَقْصٌ مِنْهَا أَوْ تَقْصِيرٌ فِي اَلآجَالِ وَزِيَادَةٌ فِيهَا أَوْ نُزُولُ اَلْبَلاَءِ أَوْ دَفْعُهُ ثُمَّ أَسْكَنَ اَلأَبْدَانَ عَلَى مَا شَاءَ مِنْ ذَلِكَ فَجَعَلَ مِنْهُ شُعُراً فِي اَلْقُلُوبِ ثَابِتاً لأَهْلِهِ وَمِنْهُ عَوَارِيَ مِنَ اَلْقُلُوبِ وَاَلصُّدُورِ إِلَى أَجَلٍ لَهُ وَقْتٌ فَإِذَا بَلَغَ وَقْتُهُمْ انْتَزَعَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَمَنْ أَلْهَمَهُ اَللَّهُ اَلْخَيْرَ وَأَسْكَنَهُ فِي قَلْبِهِ بَلَغَ مِنْهُ غَايَتَهُ اَلَّتِي أَخَذَ عَلَيْهَا مِيثَاقَهُ فِي اَلْخَلْقِ اَلأَوَّلِ﴾)[1]

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ*

[1] تفسير فرات الكوفي/٤٢٣.

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ*وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ*عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾[١]

إشارة إلى أنَّ هذه الأعمال المبرورة، لا يُنزِلها منازل القبول من الله إلاَّ الإيمان بالله، فإذا فعلها المرء غير مؤمن بالله وغير راغب في ثوابه، طامع في حُسْن المَثوبة منه، لم يكن لها عند الله وزن.

وكلمة (ثُمَّ) هنا تفيد التراخي والتباعد في الرُّتبة والفضيلة، أي: إنَّ مرتبة الإيمان ومنزلته فوق جميع ما سبقه من فكِّ الرقبة وما عُطِف عليه، لأنَّ الإيمان وحده يكون سبباً للنجاة بدون أعمال، وذلك فيمَن آمن إيماناً كاملاً تامَّاً ومات في يومه قبل أن يتمكَّن من عمل شيءٍ من التكاليف، فإنَّ ذلك ينفعه ويُخلِّصه من النار، بخلاف الأعمال فإنَّه لا يُعْتَدُّ بها بدون الإيمان.

والمعنى: ثم لا يكون مُقتحِماً للعقبة إلاَّ إذا كان من الذين اتَّصفوا بالإيمان وتحلَّوا به وماتوا على ذلك، إذ كلُّ عملٍ لا يكون معه إيمان بالله، لا يُعتَدُّ به ولا يُنظَر إليه، قال تعالى في حقِّ غير المؤمنين: **﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾**[٢]، وقال:**﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ....﴾**[٣].

---

[١] سورة البلد/آية/(١٧-٢٠).

[٢] سورة الفرقان/آية/٢٣.

[٣] سورة التوبة/آية/٥٤.

وقوله تعالى:

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

التواصي بالصبر والمرحمة، هو إلحاح المرء على نفسه بالدعوة إليهما، والتمسُّك بهما، فإذا جَزِع فى مواجهة (مال) يخرج من يده، حمل نفسه على الصبر على ما تكره واستدعى من مشاعره دواعيَ الحنان والرحمة.. فذلك ممَّا يُعِينه على مُغالَبة أهوائه، وقهر شُحِّه وبُخله.

والمقصود: يُوصي بعضُهم بعضاً بالصبر وحبس النفس ورياضتها على تحمُّل تَبِعات الطاعات ومشاقِّها، ومُغالَبة شهوات المعاصي وسَوْرتها وغَلْوائها، والبُعد عن بَطَر النِّعمة والفِتنة بها وأَشَرها، والتَّجافي من الجزع في المصائب والنوازل وأهوالها.

وقوله تعالى:

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾

أي: يحثُّ بعضُهم بعضاً على الأخذ بأسباب الرحمة، وذلك بأن يرحمَ المظلوم فيُعينه على أَخْذ حقِّه، ويُشفِق على الفقير فيُعطيه ممَّا أفاء الله عليه، ويمنع المُقْدِم على المُنْكَر من مُقَارَفَته، وأن يَدلَّ غيرَه على طريق الخير والحقِّ، ويمنعه من سلوك طريق الشَّرِّ والباطل ما وَسِعَه ذلك، وفي الجملة يكونون محلَّ رحمةٍ ومكانَ شفقة، يعاونون غيرهم من أرباب الحاجات وأصحاب الكُرُبات حتى يكونَ الله في عونهم ويعمُّهم برحمته.

وفي قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ إشارة إلى تعظيم أمر الله بالصبر على شدائد التكاليف الشرعية، وبذْل الجهد والوُسْع فيها، وفي قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ إشارة إلى الشفقة على خَلْق الله، هذا وأنَّ الطاعات لا تقوم إلاَّ على هذين الأصلين: صِدقٌ مع الحقِّ سبحانه، وخُلُق مع الخَلْق وشفقة بهم.)) (انتهى).

خلاصة الفصل الأول

١- الحِلم نوعان، الأول شكلي وهو ما يتظاهر به الناس من أُلفة ومحبَّة وتبادُل الاحترام والتقدير فيما بينهم على مستوى العلاقات الاجتماعية العامَّة.

أمَّا النوع الثاني من الحِلم، هو الحِلم العملي الذي يعكس بصدق وبصورةٍ مباشرةٍ حُبَّ وتقديرَ الإنسان لأخيه الإنسان وإمكانية التضحية من أجله والتفاني في حِفظ كرامته وحقوقه الإنسانية في المجتمع.

٢- اذا اجتمعت ثلاث خصال في الإنسان فإنَّه يتَّصِف بصفة الحِلم، وهذه الخِصال هي:

أ-الإيمان الحقيقي بمبادئ الوطنية العملية ومَحبَّة الآخرين.

ب-الشعور بالمسؤولية إزاء الوطن والشعب والمجتمع.

ج-الإيمان بثقافة حقوق الإنسان وعدم التمييز بين إنسانٍ وآخر.

٣- من الحقائق الملموسة: أنَّ الشخص الحليم يكون قوياً في داخله، واثقاً من نفسه، صبوراً في مواجهة المشاكل، في حين الشخص غير الحليم تكون صفاته عكس الحليم تماماً.

٤- كلَّما كان الإنسان المؤمن بمبادئ الوطنية يكون أكثر انضباطاً من غيره في سلوكه وتصرُّفاته، فإيمانه بمبادئ الوطنية العملية يفرض عليه التزامات صارمة ومسؤوليات اجتماعية أكثر من غيره، الأقل منه ثقافةً ووعياً في الجانب الوطني.

٥- الخُلُق الرفيع هو السِّمَة المُميِّزة لكلِّ المُصلِحين على مَرِّ التاريخ ويكون الأنبياء والمُرسَلون والأوصياء والصالحون في أعلى درجات السُّمو الأخلاقي ليكونوا نِبراساً وقُدوة للجَميع في توجيه المجتمع توجيهاً صالحاً وصحيحاً.

٦- إنَّ كلَّ إنسان يحمل قِيَم الرسالات الإيمانية فإنَّه يكون مُؤهَّلاً لِحَمل رسالة الوطنية العملية وهي الرسالة التي تجمع ما يلي:

أ- مبادئ الشعور بالمسؤولية الإيمانية.

ب- مبادئ الشعور بالمسؤولية الوطنية.

ج- مبادئ الشعور بالمسؤولية الإنسانية.

٧- إنَّ النَّبيَّ مُحمَّد صلى الله عليه وآله هو قُدوتنا وأَمَرَنَا الله تعالى أن نسير، على هُداه، وقد وَصَف الله تعالى نبيَّنا الكريمَ بأنَّه على خُلُق عظيم، ومَن يأتمر بأوامر الله تعالى عليه أن يقتبس من خُلُق الرسول صلى الله عليه وآله ما يستطيع وما يتمكَّن ليكون إنساناً صالحاً مُؤثِّراً في الحياة العملية على أرض الواقع، فكلَّما تعلَّم من أخلاق وقِيَم وسلوكيات ومبادئ رسالية، سيكون هذا الإنسان أكثر تأثيراً في المجتمع وأقوى

صموداً أمام الإرهاصات السلبية التي تُواجِه الأشـــخاص المؤمنين وهم يعيشون الحياة بكلِّ تفاصيلها.

٨- لحُسْن الخُلُق أثرٌ كبيرٌ في تأسيس العلاقات بين الأشخاص فعن طريق الخُلُق الحَسَــن تتكوَّن أوثق العلاقات الاجتماعية وأقوى الأواصـــر الإنســـانية بين أبناء المجتمـــع، وبذلك تتآزَر العلاقـــات الاجتماعية تحت عنوان طاعة اللهﷻ وحُبِّ الوطن والشعب.

٩- إنَّ مفهوم الوطن إذا ما أبقيناه جامداً بدون إحساس أفراد الشعب بالوطنية، ســـيكون مفهوماً لا حركـــة ولا حياة فيه، أمَّا إذا تفاعل مفهوم الوطن مع الوطنية داخل ذات الإنسان، واندمج فيها، بذلك سيشعر الإنسان بانبثاق الحياة في داخله.

١٠- إنَّ الموروث القِيَمي يُحتِّم على الفرد أن يعتزَّ بسُـــمعَتِه، لأنَّ سُمعَتَه تنسحب على سُمعةِ أهله وعائلته وعشيرته وهكذا، لذا فإنَّ حُسنَ الخُلُق هو المفتاح لكلِّ الفضائل الأخلاقية والاجتماعية.

١١- التربية الرِّســـالية للأُمَّة تُحتِّم عليها الاقتداء بالرســـول الأكرمﷺ باعتباره مُنقِذ الإنسانية من الظُّلُمات إلى النُّور، وهذا الاقتداء بالرسولﷺ يُؤسِّس لقيام أُمَّة صالحة لها أهداف واضحة فـــي إقامة العدل والمســـاواة بين الجميع، فقد قال تعالى في مُحكَم كتابه الكريم:-

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ.... ﴾[1]

[1] سورة الأحزاب/آية/٢١.

١٢- هناك مُهمَّة غاية في الأهمِّيَّة تقع على عاتق الإنسان صاحب الخُلُق الحَسَن، هذه المهمَّة المُناطة به: أن يكون إنساناً قُدوة للآخرين يستطيع أن يفهم آراء الجميع ويتحسَّس مشاعر الجميع بمشاعر إنسانية مُرهَفة، وبالنتيجة يكون هو الشخص الذي يفهم الجميع ويتفاهم مع الجميع، وإن اختلفوا معه في الدين والمذهب والقومية.

١٣- الإنسان الذي لا يلتزم بمبادئ الوطنية العملية والتي من أُسُسها تطبيق القِيَم الرِّسالية الإيمانية والوطنية والإنسانية، لا يستطيع أن ينهض بواجبه الوطني اتِّجاه شعبه ووطنه وإنسانيَّته.

١٤- تُعطينا سيرة النَّبيِّ مُحمَّد صلى الله عليه وآله وسلم وباقي الأنبياء نموذجاً رائعاً في أساليب التعامل مع أبناء مجتمعاتهم، فهم يستوعبون كلَّ وجهات النَّظر سواءً كانت من أتباعهم أو من غير أتباعهم، من مُحبِّيهم ومن غير مُحبِّيهم وتلك هي أخلاق المُصلِحين.

١٥- هناك فرق كبير بين الثقة بالنفس والغرور، فالثقة بالنفس تعني الوثوق بما تملك نفسية الإنسان من إمكانيات معنوية وإرادة ذاتية تجعل نفسية الإنسان نفسية مُنتِجة متفاعلة مع الآخرين تعيش حالة الواقعية بشكلٍ عملي.. في حين الشخصية المغرورة تعيش حالة انبهار كاذب وصاحب الشخصية المغرورة سيتصوَّر نفسه بأنَّه أعلى مرتبة من الآخرين، ممَّا يجعله شخصية غير طبيعية، شخصية قلقة في تصرفاتها.

١٦- عندما يكون الإنسان مؤمناً برسالته وصادقاً في الإخلاص لمبادئ رسالته، فإنَّه سيكون قدوةً لغيره، ويرى أنَّ مصلحة المجتمع تكون فوق مصالحه ورغباته وأهوائه مثل هذا الإنسان يكون عنصر جذب للآخرين، عكس الإنسان المغرور، الإنسان المصلحي الذي يكون عنصراً ينفُر منه الآخرون.

١٧- الرحمة والرأفة صفات غاية في الإنسانية، فهي من صفات اللهﷻ، كما أنَّها من صفات الأنبياء والصالحين من عباده ومَن يقتدون بهم.. لقد أكَّدت كلُّ الرسالات السماوية على مفهوم الرحمة والرأفة، لأنَّها قِيَم إنسانية راقية المضامين.. فالإنسان الذي يتَّصف بالرحمة والرأفة يكون مَحطَّ احترام الآخرين واعتزازهم به، وهذه الصفات يتحلَّى بها دائماً القادة الصالحون في المجتمعات والشعوب والأُمم.

١٨- من روائع تعاليم الدين الإسلامي الحنيف تأكيد الإسلام على الإنسان أن يكون محاسِباً لنفسه، ليكون في حالة مراجعة وتصحيح مستمرَّة، وعلى أساس هذا النهج التربوي الرائع يتعلَّم الإنسان حالتي تأكيد المواقف الصحيحة، وتصحيح المواقف الخاطئة أوَّلاً بأوَّل.

الفصل الثاني

ويتكوَّن من ثلاثة مباحث:

المَبحث الأول:

الرِّفْقُ.. يُؤَدِي الى السِّلْم

المَبحث الثاني:

لِلْزِّينَةِ.. مَعَانٍ

المَبحث الثالث:

مبحث تفسيري

الفصل الثاني

المبحث الأول

الرِّفْقُ.. يُؤَدِّي الى السِّلْم

الرِّفْقُ.. يُؤَدِّي إِلَى السِّلْم

كما بيَّنَّا إنَّ الوطنية العملية.. كلّها مصاديق، وبعد وضوح الفكرة، تتَّضح جميع مقاصدها، ويُفرَض أن تخرج إلى الحياة، ويعمل حاملها على تجسيد مِصداق لهذه الفكرة، ولو بالحدِّ الأدنى.. فمثلاً: اللِّين تحت الرحمة، والذي يذكره (سُبْحَانَهُ وتَعَالَى) في صفة من صفات النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم عندما يقول:-

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّه لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1]

اللِّين.. مسألة عملية وليست نظرية، فهي تعامل واقعي مع الآخر.. وفي آية أخرى: تأكيد على النَّبيِّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بخَفْض الجناح، بمعنى: التواضع، فهو يكون من الرحمة، كما أنَّ عدم ردِّ الإساءة بإساءةٍ مثلها، يُعتبَر من الرحمة.. ولهذا القرآن الكريم يصف هذه الحالة، في صفة المؤمنين الرحماء:-

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾[2]

---

[1] سورة آل عمران/آية/١٥٩.

[2] سورة الفرقان/آية/٦٣.

الجاهل: الذي يجهل بالإيمان، الذي يجهل بالقِيَم الإنسانية، الذي يجهل دور الإنسان في الحياة، الذي يجهل أهمِّيَّة وقُدسية الأوطان.

من مفردات الرحمة: مفهوم (**الرِّفْق**)، يمكن أن يكون تعريفه من باب التقريب هو: الرعاية المصحوبة بالمحبَّة، جاء في بعض معاجم اللغة مفردة الرِّفْق، بمعنى: (لَطُفَ به وأَلاَنَ جانبه له وأحسن الصنيع له)، وجاء في الحديث الشريف:-

﴿إِنَّ اللّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى العُنْفِ، وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ﴾

من هنا نقول: أنَّ الوطنية العملية تحتاج مِمَّن يحملها كرسالة ويعمل من أجل بناء وطنه على أساسها.. أن يتحلَّى بالرِّفق مع الآخرين.. بعد ذلك نقول: أنَّ الرِّفق يبدأ: في رِفق الإنسان بنفسه، رِفق الإنسان في علاقته مع ربِّ العالَمين، ورِفق الإنسان مع مجتمعه وأبناء وطنه وشعبه.

بالتأكيد أنَّ الإنسان أكثر ما يُحبُّ نفسه.. فبمقدار حبِّه لنفسه، لابدَّ أن يرفق بها، بمعنى: إعدادها بالشكل السليم، ومن ثمَّ استثمار طاقاتها وقابلياتها، من أجل الصالح العام، وخصوصاً صالح وطنه وشعبه.

من المُنطلَق الإيماني.. أنَّ الإنسان لابدَّ أن يتزوَّد دائماً من علاقته مع ربِّ العالَمين، بالقوَّة والطاقة وتترسَّخ عنده القِيَم النبيلة

وعلى رأسها القِيَم الإنسانية.

فدائماً الإنسان المؤمن (بمفهومنا) يأخذ من أجل أن يُعطيَ، لا أن يأخذ من أجل أن يحتفظ بما أخذه لنفسه، فتكون ثمرته نظرية وليست عملية، وإذا أخذ وأعطى للمجتمع وأبناء الوطن، ستكون تلك العملية من أجل الصالح العام، وبذلك يكون مُجسِّداً للوطنية العملية.

وفي هذه العلاقة المقدَّسة ما بين الإنسان وربِّ العالَمين، تتحقَّق حالة التكامل الروحي.

ولهذا نرى أنَّ هناك نصوصاً تُؤكِّد على: الرِّفق في علاقتنا مع بعضنا البعض، والمطلوب دائماً إدامة هذه العلاقة والمحافظة على استمراريتها وكذلك استثمارها، والتأكيد على الأمور الضرورية والواجبة.. أَمَّا الأمور الخارجة عن ذلك، فهي تخضع لإقبال النفس وإدبارها.

لأنَّ المطلوب الإلهي: ألاَّ تكون حالة العلاقة مع اللهﷻ، لها نتائج سلبية، فنرى هناك ممَّن توغَّل في هذه العلاقة، ولكن ارتدَّ على أعقابه بسبب قصور في فهمه للعلاقة المتوازنة بين الإنسان وخالقه سُبْحَانَهُ.

إذن، المطلوب حتَّى في العلاقة مع ربِّ العالَمين: الرِّفْق بالنفس.

بالتأكيد هناك نصوص كثيرة في هذا المجال ويمكن أن نذكر

بعضها، ومنها الأحاديث الشريفة، وهناك منها أقوال الأئمَّة(عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) ما وَرَد من هذه الأحاديث منها:-

﴿إِيَّاكُمْ وَالتَّعَمُّقَ فِي الدِّيْنِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَهُ سَهْلاً، فَخُذُوا مِنْهُ مَا تُطِيْقُونَ، فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَا دَامَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ، وَإِنْ كَانَ يَسِيْراً﴾

بالتأكيد أنَّ لكلِّ عِلْم مُتخصِّصين، ولكن لا يمكن أن يكون كلُّ المجتمع وكلُّ الشعب من المُتخصِّصين، فالمُتخصِّص يمكن أن يتعمَّق وله أن يتعمَّق، سواء في العلاقة الروحية ما بينه وبين ربِّ العالَمين، أو في علاقته عند تطبيق تعاليم الدين.. وإقامة الدين يكون على مستويات.. ولإقامة الدين تُشير الآية الكريمة:-

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1]

ولكن ليس المطلوب من أفراد المجتمع والشعب أن يكونوا متعمِّقين في الدين.. ولكن المطلوب أن يؤدُّوا الفرائض الواجبة عليهم، وفي أوقات توجُّههم فلْيعملُوا من أجل الاستزادة.

ولهذا جاء في الحديث الشريف:-

﴿إِيَّاكُمْ وَالتَّعَمُّقَ فِي الدِّيْنِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَهُ سَهْلاً﴾

ولهذا النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقول:-

﴿جِئْتُكُمْ بِالشَّرِيعَةِ السَّمْحَاءَ﴾

---

[1] سورة الروم/آية/٣٠.

ثمَّ يقول رسول الله ﷺ:-

﴿فَخُذُوا مِنْهُ مَا تُطِيقُونَ﴾

الفرائض الواجبة هي أمور سهلة، لأنَّ الله ﷻ يقول:-

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا....﴾[1]

لكن الأمور التي هي أكثر من ذلك، تكون ضمن ما تُطيقون، بعد ذلك يُؤكِّد الحديث:-

﴿فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَا دَامَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ، وَإِنْ كَانَ يَسِيْرَاً﴾

الله ﷻ يُحِبُّ العمل الصالح من العبد وإن كان قليلاً بشرط أن يكون دائماً بدون انقطاع.. يمكن أن يكون السبب في ذلك: الإدامة في العمل الصالح، يمكن أن تنتج ثمرة، والمطلوب الإلهي: ليس فقط العمل الصالح بحدِّ ذاته، وإنَّما بما يحمل من ثمار وفوائد، وخدمة للمجتمع وللإنسان الآخر، ولهذا يقول الحديث:-

﴿فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَا دَامَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ، وَإِنْ كَانَ يَسِيْرَاً﴾

العمل الصالح وإن كان يسيراً ومُثمِراً، خير مِن كثيرٍ لا يُثمِر.. فالكثير الذي لا يُثمِر عندما يتنقَّل الإنسان في الأعمال من دون تفكير وتخطيط، فمرَّةً: يعمل هذا العمل الصالح، ومرَّةً: يعمل ذاك العمل الصالح من دون أن يواصل، حتَّى يقطف ثماره.

يُفرَض أن يكون العمل الصالح، ليس ما تُمليه عليه نفسه، إنَّما ما هو فيه فائدة للمجتمع، يرى حاجة المجتمع ويعمل ذاك

---

[1] سورة البقرة/آية/٢٨٦.

العمل الصالح، الذي يحتاجه مجتمعه، يحتاجه شعبه، يحتاجه وطنه.

وعلى نفس السياق، ما وَرَدَ عن الإمام جعفر بن محمَّد الصادق(عليه السلام): حين ذهب إليه شخص، قال: اجتهدتُ في العبادة وأنا شاب، فقال له الإمام (عَلَيْهِ السَّلَامُ):-

﴿يَا بُنَيَّ دُونَ مَا أَرَاكَ تَصْنَعُ، فَإِنَّ اللهَ(عزوجل) إِذَا أَحَبَّ عَبْداً رَضِيَ مِنْهُ بِالْيَسِيرِ﴾

الإخلاص في العمل: وإن كان يسيراً، يكون مقبولاً من قِبَل الله(سبحانه وتعالى).

بالتأكيد نحن نريد ونحتاج تأكيد العلاقة مع ربِّ العالَمين.. فهي غاية ووسيلة، غاية: من أجل بناء أنفسنا، ووسيلة: من أجل القُدرة على حَمل رسالتنا، من أجل شعورنا بالمسؤولية تجاه وطننا، تجاه شعبنا، تجاه الإنسان الآخر أينما كان.

فالعلاقة مع الله(سبحانه وتعالى) دائماً، تُعطي الرحمة.. وتعطي (إن أُدِّيت بتفاعل) درجة من درجات الخشوع، وعندما يخشع القلب يكون قلباً رحيماً.. فالمطلوب أن نُجسِّد هذه الرحمة في الخارج، في تعاملنا مع الآخرين.

فمرَّةً: يكون تعامُلُنا تعاملاً فردياً، ومرَّةً: يكون تعامُلُنا تعاملاً مع أسرة، ومرَّةً: يكون تعامُلُنا تعاملاً اجتماعياً.. الرِّفق مطلوب في جميعها، عندما يكون اثنان في حضر أو سفر، لتأدية عمل، أو مهمَّة، يكون الرِّفق منهما مطلوباً، وهناك تأكيدات في ثقافة الرِّفْق،

في العلاقات الفردية بين الإنسان وأخيه الإنسان.. كما وَرَدَ في الحديث:-

﴿مَا اصْطَحَبَ اثْنَانِ إِلاَّ كَانَ أَعْظَمَهُمَا أَجْراً وَأَحَبَّهُمَا إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَرْفَقُهُمَا بِصَاحِبِهِ﴾

نلاحظ أنَّ هناك تشجيع، وحَثّ على الرِّفْق الفردي بالصاحب، سواءً كانا في حضر، أو في سفر، أو في عمل، أو في فرح، أو في ألم، أو ضمن كلِّ مجالات الحياة.

بعد ذلك نرى الحديث الشريف يُؤكِّد على الرِّفق بالأُسرة، فيقول:-

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْراً أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرِّفْقَ﴾

بمعنى: أنَّ أفراد العائلة يرفق بعضُهم ببعضٍ، عند ذلك يكونون أكثر أُلفة، وأكثر تعايشاً، وأكثر قدرة على تحمُّل حياتهم بكلِّ ما فيها.

وبالتأكيد الرِّفْق مطلوب مع الناس جميعاً.. كما وَرَدَ عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:-

﴿إِنَّا أُمِرْنَا -مَعَاشِرَ اَلأَنْبِيَاءِ- بِمُدَارَاةِ اَلنَّاسِ كَمَا أُمِرْنَا بِأَدَاءِ اَلْفَرَائِضِ﴾

المداراة: نوع من أنواع الرحمة، وهي ممَّا ينطبق عليها الرِّفْق، والذي عرَّفناه بالرعاية.

ونرى تتمَّة الحديث: يربط مداراة الناس، الذي هو الرِّفْق (بالعقل).. فالعقل دائماً: يُوجِّه للأصلح، إذا كان استعماله استعمالاً

سليماً، ويقول:-

﴿وَأَعْقَلُ اَلنَّاسِ أَشَدُّهُمْ مُدَارَاةً لِلنَّاسِ﴾

بمعنى: أكثرهم رِفقاً بالناس.. فيكون نتيجة هذا الرِّفق: حياة سعيدة، حياة مطمئنة، شعب متآخٍ، هذا في الحياة الدنيا.

أَمَّا في الآخرة، فيكون له من الدرجات ما لا يعلمها إلاَّ الله ﷻ. فالذي يعمل الخير مع الآخرين، إن كان مؤمناً به، يشعر بسعادة قبل غيره.. ولهذا يقول الحديث:-

﴿مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾

ولهذا نرى في بعض النصوص:-

﴿إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قُفْلاً وَ قُفْلُ اَلإِيمَانِ اَلرِّفْقُ﴾

كما وَرَدَ عن الإمام أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب عليه السلام:-

﴿لِكَلِّ دِينٍ خُلُقٌ، وَخُلُقُ الإِيمَانِ الرِّفْقُ﴾

ورغم تأثير الرِّفْق في علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان وخصوصاً أبناء وطنه، وإذا كان صاحب رسالة ومُهمَّة، يقول في ذلك النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم:-

﴿مَنْ كَانَ رَفِيقاً فِي أَمْرِهِ نَالَ مَا يُرِيدُ مِنَ اَلنَّاسِ﴾

عند ذلك يكون برِفقِه، مُؤثِّراً بالناس أكثر، وتكون الاستجابة من الناس إليه أوسع.

هناك عدَّة أقوال للإمام أمير المؤمنين عليه السلام في موضوع الرِّفْق وثمرات الرِّفْق، فمرَّةً يقول:-

﴿اَلرِّفْقُ يُيَسِّرُ اَلصِّعَابَ﴾

الإنسان في حياته، وخصوصاً إذا كان حاملاً لرسالة إنسانية، تكون أمامه عقبات، تكون أمامه صعاب.. فما دام هو حامل لثقافة الرِّفْق، وممارساً لها مع الآخرين، سيكون أداؤه لرسالته أسهل عليه.. فهي من أهمِّ أسباب دخولك إلى قلوب الآخرين، ولهذا يقول النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم:-

﴿إِنْ شِئْتَ أَنْ تُكْرَمَ فَلِنْ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تُهَانَ فَاخْشُنْ﴾

في تعاملك مع الآخرين.. وبالنتيجة: الرِّفْق من أهمِّ مفردات السِّلْم في المجتمعات والأوطان.

الرِّفْق: ينتج عن المَحبَّة، ويُبعد الإنسان (أفراداً وجماعات) عن الفكر العدواني، وتأجيج صراعات بمُسمَّيات عديدة.. ولهذا يقول الإمام عليُّ بن أبي طالب عليه السلام:-

﴿الرِّفْقُ يُؤَدِّي إِلَى السِّلْمِ﴾

من هنا جاءت وصايا في موضوع الرِّفْق لأهمِّيَّته ولتأثيره، منها ما وَرَدَ من وصايا الخِضر لموسى(عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) في قوله:-

﴿مَا رَفَقَ أَحَدٌ بِأَحَدٍ فِي الدُّنْيَا إِلاَّ رَفَقَ اللهُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾

نتيجة رِفْق الإنسان بأخيه الإنسان، كما أمر ربُّ العالَمين بذلك.. فستكون نتيجته في الآخرة: الرِّفْق به من قِبَل ربِّ العالَمين.

لهذا دائماً المطلوب: الرِّفْق ما بين أبناء الأُمَّة، ورفق الإنسان بأخيه الإنسان، يقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ):-

﴿اَلرِّفْقُ رَأسُ اَلْحِكْمَةِ، اَللَّهُمَّ مَنْ وُلِّيَ شَيْئاً مِنْ أُمُورِ أُمَّتِي فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ وَمَنْ شَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ﴾

إيماننا وإسلامنا: إنساني مع الجميع.. والإسلام المجيد يعتبر الإنسان قيمة كبرى، لأنَّه يمثِّل خلافة الخالق ﷻ على الأرض، كما أنَّ الإسلام المجيد يُؤكِّد رِفْقه حتَّى بالحيوان، بعدم إجاعته والتسبُّب بعطشه، والاهتمام به بشكل عام.. وفي الحديث الشريف:-

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ ويُعِينُ عليه، فإذا رَكِبْتُمُ الدَّوابَّ العُجْفَ فَأَنْزِلُوْهَا مَنَازِلَهَا، فَإِنْ كَانَتِ الأَرْضُ مُجْدِبَةً فَانْجُوْا[١] عَنْهَا، وَإِنْ كَانَتْ مُخْصِبةً فَأَنْزِلُوْهَا مَنَازِلَهَا﴾

يعني دائماً، المطلوب من الإنسان: الرِّفْق بالدَّوابِّ.. فمَن كان في الوقت الذي يركب على الدَّوابِّ، لابدَّ بعد فترة أن ينزل عنها من أجل أن ترتاح، يُؤكِّد النَّبيُّ ﷺ أنَّ المطلوب: أن تنزلوها في وقت ومكان تتمَّكن فيه من أن ترى ما تأكل وتشرب.

ولهذا إذا كانت الأرض مُخصِبة، فعلى الإنسان أن يترك الدَّوابَّ لترعى فيها، وإذا كانت مُجدِبة ولا خضار فيها ولا ماء، فلا يُطلِقها لترعى.. وإنَّما يذهب بها إلى مكانٍ آخر تكون فيه الأرض مُخصِبة.. كلُّ ذلك من أجل الرِّفق بالحيوان.

كلُّ مجتمعاتنا بحاجة إلى الرِّفْق.. كلُّ شعوبنا بحاجة إلى الرِّفْق، كلُّ إنسان اليوم بحاجة إلى الرِّفْق.. ولهذا المطلوب أن يكون الرِّفق، مفردة ضمن مفردات الوطنية العملية.

---

[١] النَّجاء: الخلاص من الشيء.

الفصل الثاني

المبحث الثاني

لِلْزِّينَة.. مَعَانٍ

لِلزِّينَة.. مَعَانٍ

الوطنية العملية تفرض على الإنسان التفاعل مع المجتمع.. تحتاج الى التعارف ما بين أفراد الشعب.. تحتاج إلى الشراكة الوطنية الإنسانية من قِبَل كلِّ أبناء الوطن.. يمكن أنَّ هناك بعض الأُسُس الرئيسية، تكون غريزية في الإنسان، تدفعه للتفاعل مع الآخرين.. ويمكن أن تكون هناك دوافع ذاتية وُضِعت ضمن تكوين الإنسان من قِبَل ربِّ العالَمين، يعني: محبَّته أو حاجته إلى الاجتماع بالآخرين.

وهكذا، هناك الكثير من الأُسُس المطلوبة من أجل تحقيق الوطنية العملية، هي موجودة في داخل الإنسان، ولكن عليه أن يلتفت إليها، يمسح الغبار عنها، ومن ثمَّ يُنمِّيها بتفعيلها في المجتمع، فعندما تتفعَّل هذه الأُسُس في المجتمع، ويحاول الإنسان أن يستثمرها للصالح العام، وصالح وطنه، وصالح مجتمعه.. عند ذلك تنمو تلك الأُسُس وتنضج شيئاً فشيئاً.

وبعد أن تنموَ تكون في حاجة إلى أن تتكامل.. عند ذلك يحتاج الإنسان لِمَا عند الآخرين من خبرات واستثمارات لطاقاتهم وقابلياتهم، من أجل أن يُنضِّج ما لديه.. وهذا ما نُعبِّر عنه بمراحل تكاملية، للتنمية والتطوير.

هناك مسائل تحتاج إلى أن يلتفت إليها الإنسان.. من أجل أن يكون مؤهَّلاً لحَمْل رسالة إيمانية ووطنية وإنسانية، أن يكون مقبولاً من قِبَل المجتمع، أن يكون مقبولاً من قِبَل الآخر.

فدائماً صاحب الرسالة الإيمانية الوطنية الإنسانية، يعمل من أجل أن يستجمع ما يمكن استجماعه من إمكانيات إيجابية مُنتِجة، ممَّا يُؤهِّله لحَمْل رسالته وتوصيلها للآخرين، للمجتمع، للشعب، للأُمَّة، للناس جميعاً.

ولكن يحتاج ذلك لبعض الأمور، التي لابدَّ وأن يقوم بها، وأن يعملها، وأن يلتفت قبل كلِّ شيء لأهمِّيَّتها، وهذه الأمور مطلوبة من الفرد، وعلى المواطن الالتفات إليها، وهي المسائل الأساسية لحَمْل رسالته الوطنية.

لأنَّه دائماً الوطنية العملية: تطبيق لحَمْل رسالة وطنية.. أمَّا مَن لا يفهم حقوق الوطن، ولا يفهم معاني الوطنية.. لا يمكن أن يحمل رسالة الوطنية العملية.

فهو ما دام حَمَل هذه الرسالة.. فلابدَّ أن يستجمع كلَّ المؤهِّلات، التي من شأنها أن تجعل موقفه مُوفَّقاً، ورسالته مُؤثِّرة.

من هنا نُؤكِّد على أهمِّيَّة ظاهر الإنسان في حَمْل رسالته.. هناك عدَّة ظواهر للإنسان، عليه أن يلتفت إليها، وأن يُفعِّلها، وأن يستثمرها، لصالح رسالته ومهمَّته.

وفي تقديرنا: من أهمِّ الأمور (الظاهرية) المطلوبة، التي لها

علاقة مع (ظاهر) الإنسان.. هو أن يخرج للمجتمع بحَمِله للرسالة الوطنية، بشكل مقبول.. والأفضل أن يخرج بشكل مُحبَّب، حتَّى يراه الآخرون بصورة حَسَنة.

تماماً، أنَّ جمال (داخل) الإنسان، والقِيَم الجيِّدة التي يحملها في داخله، لها علاقة بظاهره، ولها انعاكاسات على ظاهره.. ولكن لأهمِّيَّة بعض المفردات، في تقديري: من الضروري التأكيد عليها وهي: مسألة ما يخرج به إلى الناس.. فمن أوضح الأمور التي يخرج بها الإنسان إلى الناس: زيّه، ملابسه.

المطلوب: أن يخرج بها بأجمل صورة، بأحلى صورة، بأحسن صورة.. ولا علاقة لهذه المسألة، بمسألة غلاء ما يلبس أو رخصه، وإنَّما بترتيب ما يلبس، بتنسيق ما يلبس، وأن يكون هذا الترتيب والتنسيق مُحبَّبَاً للآخرين، مُحبَّباً للناظر، مُحبَّباً للمجتمع، مُحبَّباً لأبناء شعبه.

نحن نُؤكِّد: أنَّ لكلِّ شعب أذواق معيَّنة، وثقافة معيَّنة في ملبسه، يمكن أن تكون لها علاقة بتاريخه، بحضارته، لها علاقة بثقافته، لها علاقة بعاداته.. ولكن نقول: أنَّ المطلوب من أبناء الشعب والوطن الواحد، أن يكونوا بأحسن الصور والمظهر، عندما يحملون رسالتهم الوطنية إلى المجتمع والشعب.

وهنا نُؤكِّد على مسألتين:

المسألة الأولى: أنَّها مسألة ذاتية عند الآخرين، عندما يرى

الترتيب وحُسْن الاختيار عند الآخر، يُعجَب به.

المسألة الثانية: أنَّ المجتمع فيه مستويات فكرية، وثقافية متعدِّدة.. فيمكن عندما لا يرى الآخر بالشكل الحَسَن، يمكن أن يزدريَه، وإذا ازدراه يبتعد عنه، وإذا ابتعد عنه، لا يسمع لرسالته ومهمَّته.

ولهذا نُؤكِّد: على ضرورة المظهر الجيِّد، الصورة الجيِّدة، اللِّباس الحَسَن، من أجل تألُّق حامل الرسالة الوطنية، فيدخل إلى نفوس الآخرين، يحصل على تقدير الآخرين، ويمكن أن يصل إلى مَحبَّة الآخرين.

ولهذا المفهوم الوطني الإيماني الإنساني، نصوص حتَّى في الشريعة المُقدَّسة.. نصوص في هذا الموضوع توجَد في الديانات ككلٍّ، ومنها إسلامنا الحبيب، وعلى سبيل المثال نرى الآية الكريمة تُخاطب الناس جميعاً، تخاطب البشرية جميعاً:-

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[1]

الذي يمكن أن يُفهَم من الآية الكريمة: أنَّها مُوجَّهة لكلِّ أبناء الديانات، لأنَّها لم تبتدِئ إلاَّ بالعمومية للإنسان، والذي له مكان يُعبَد اللهﷻ فيه، ولهذا جاء النصُّ الإلهي:-

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾

---

[1] سورة الأعراف/آية/٣١.

المطلوب الإلهي: من أبناء البشرية، من الناس جميعاً، من أفراد الشعب، من أبناء الوطن، حاملي الرسالة الوطنية الإنسانية الإيمانية.. أن يتزينَّوا ويخرجوا بالزينة التي تُحبِّبهم إلى المجتمع.

لأنَّ الذهاب إلى أماكن العبادة، هو نشاط إيماني مُحدَّد ضمن رسالة الإنسان.. والذهاب إلى أماكن العبادة، ومنها مساجدنا الشريفة المباركة في الإسلام هو ضِمن حَمْل الرسالة، فهو لا يذهب للمساجد بشكل أجْوَف، وإنَّما لابدَّ أن يكون حامِلاً لرسالة.. هذه الرسالة: إذا كانت إيمانية، فلابدَّ أن تكون وطنية، وإذا كانت إيمانية، فلابدَّ أن تكون إنسانية.

المطلوب الإلهي عندما يذهب الإنسان للمساجد لابدَّ أن يكون بأحسن صورة، لأنَّه هناك سيلتقي بالآخرين، سيلتقي بأفراد كثيرين من أبناء شعبه، وبالتأكيد مَن يحمل رسالة، يعمل من أجل نشرها للآخرين، توضيحها للآخرين، من أجل توحيد الجهود لها.

ولهذا الآية تقول:-

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾

اذهبوا بأحسن ما يمكن، بأنظف ملابسكم، بأحلى ثيابكم.

كلُّ ذلك من أجل تقريب هذا الفرد إلى نفوس الآخرين، حتى يكون التفاعل مع الآخرين تفاعلاً إيجابياً.

من المفيد أن نذكر هنا مفردة تربوية ضمن هذه الآية، لأنَّه من الأمور التي يمكن أن تُفهَم من الآية الكريمة: أنَّ الزينة تعني:

الأولاد، والتوجيه الإلهي بأخذ الأبناء للمساجد، بمعنى: محاولة تربيتهم على الذهاب إلى دُور العبادة، إلى المساجد، وبذلك يتعوَّد الولد منذ نعومة أظفاره توثيق علاقته مع الله.. بمقدار ما يتأكَّد ذلك، ستتأكَّد علاقته مع أخيه الإنسان، وتكريمه للإنسان.. بعد ذلك سيتعرَّف شيئاً فشيئاً إلى ما هي مهمَّته مع أخيه الإنسان، تجاه وطنه.

وكيف عليهم جميعاً، أن يُجسِّدوا الخلافة الإلهية للإنسان في وطنه، والذي عليه إعماره.. ولكن بالنتيجة: الآية بعمومها تُؤكِّد على المظهر اللائق، عند الاجتماع مع الآخرين.

هناك آية كريمة تُصحِّح بعض التوجُّهات التي عُمِلَ بها، أو كانت مُتَبَنَّاة من قِبَل فِئات من المؤمنين من أبناء الديانات السماوية، محاولين طرح أنَّ العلاقة مع الله ﷻ لا يمكن أن تجتمع بصورة صحيحة، مع العلاقة مع المجتمع والإنسان، والعلاقة مع الرغبات المشروعة للإنسان.

ويمكن ضمن الكثير من الديانات، هناك أسماء ومُسمَّيات لهذا الخطّ وهذا التوجُّه في الحياة الدنيا، تُقدِّم الانعزال عن الناس عن المجتمع، لأنَّهم يعتقدون أنَّ مخالطة الناس تشغلهم عن عبادة ربِّ العالَمين، ولهذا جاءت الآية الأخرى من أجل تصحيح هذه الفكرة، وكأنَّها تريد أن تقول: أنَّ العلاقة مع الله ﷻ لابدَّ أن يكون نتيجتها: علاقة مع الإنسان، علاقة مع المجتمع، علاقة مع الشعب.

العلاقة مع اللهﷻ لابدَّ أن تكون نتيجتها: تجسيد خلافة الإنسان لربِّ العالَمين في بناء وطنه، وتجسيد انتمائه للوطن ضمن ثقافة الوطنية العملية.

ولهذا جاءت ردَّاً على الاتِّجاه الذي يذهب إلى أنَّ المعايشة مع الله، تكون بالانقطاع عن البشرية والإنسان وعدم الشعور بالمسؤولية وبالعمل الصالح من أجل المصلحة العامَّة وخدمة الوطن.

ولهذا الآية الأخرى في سورة الأعراف كذلك تقول:-

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّه الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِه وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1]

بالنتيجة: الإنسان عندما يتزيَّن، هي أمور من نِعَم اللهﷻ، فعندما يلبس اللباس الجميل، فهو إمَّا من قطن أو صوف وما شابه وشاكل ذلك.

ولهذا الآية الكريمة تقول:-

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّه الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِه وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

هذه الزينة، اللهﷻ خَلَقها، لماذا تُحرِّمونها على أنفسكم، وقد أحلَّها اللهﷻ لكم، ضمن ضوابط معيَّنة؟!...

---

[1] سورة الأعراف/آية/٣٢.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1]

وكلمة **﴿أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾** يعني: أراد الله ﷻ لعباده أن ينتفعوا بها، أراد لعباده أن يتزيَّنوا بها، أراد لعباده أن يكونوا في أحسن المظاهر فيما بينهم ومع غيرهم.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

﴿وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.. مرَّة: نفهمها على أساس أنَّ الزينة وأنواع الزينة من الملابس، هي ضمن الطيِّبات من الرزق.. لأنَّها كلُّها من رزق الله ﷻ، كلُّها نتيجة خَلْق الله ﷻ، فالملبس من طيِّبات الرزق.. ومرَّةً: نفهمها بالمعنى الأوسع والأعمّ: الطيِّبات من الملبس والمأكل.

﴿....قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

بالتأكيد، بالمعنى الذي ذهبنا إليه للإيمان: أنَّه مسألة فِطرية وذاتية وتكوينية، فهو موجود عند كلِّ إنسان، وقد استدلَلْنا على ذلك من الآية الكريمة:-

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ

---

[1] سورة الأعراف/آية/٣٢.

عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[١]

ولهذا هي ﴿**قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ بهذا المعنى: للبشرية، ويمكن الرأي الآخر: ﴿**قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ يعني: أبناء الأديان، الذين آمنوا بالرسالات السماوية، واعتنقوها.

الذي يجمع ما بين الرأيين هو للإنسان الذي يحمل رسالة إنسانية، ويعمل من أجل العمل الصالح للآخرين، ويعمل من أجل الخير لمجتمعه ولشعبه، ولهذا الموضوع علَّقه بالحياة الدنيا:-

﴿.... **قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾**[٢]

بالتأكيد، نحن كمؤمنين لا يمكن أن نفهم الدنيا من دون الآخرة، ودائماً يكون فهمنا للدنيا المرتبطة بالآخرة، مرتبطة بيوم فيه نلقاه، بيوم اللقاء مع ربِّ العالَمين، بيوم العودة المادية لربِّ العالَمين.

ولهذا، نحن بكلِّ مفردات حياتنا، لابدَّ أن نعيش دنيانا وآخرتنا، ولا تُسعد دنيانا بحسب مفهومنا الإيماني، إلاَّ إذا كنا قد عشنا آخرتنا.. لأنَّ بهذا الإيمان تكون قوة الإنسان أكثر، ودوافعه تكون أضخم، وأهدافه تكون أنبل.

على ضوء هذا المفهوم الإنساني الوطني الإيماني، هناك

---

[١] سورة الروم/آية/٣٠.

[٢] سورة الأعراف/آية/٣٢.

أحاديث للنَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وأقوال للإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام تدعَم هذا الاتِّجاه:-

فمن أحاديث النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ما تذكره الروايات: في استحباب استعمال المشْط، وفوائده، وهذا الاستحباب، وذِكْر هذه الفوائد دائماً تعني: الحثّ والتشجيع على استعماله.. نتيجة هذا الاستعمال هو: حُسْن المظهر، التزيُّن عندما يخرج إلى الآخرين.

كذلك في الحديث الآخر:-

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ إِذَا خَرَجَ عَبْدُهُ الْمُؤْمِنُ إِلَى أَخِيهِ أَنْ يَتَهَيَّأَ لَهُ وَأَنْ يَتَجَمَّلَ﴾

﴿أَنْ يَتَهَيَّأَ لَهُ﴾ بمعنى: أن يخرج بِصَدر مُنفَتِح.

﴿وَأَنْ يَتَجَمَّلَ﴾ بمعنى: أن يكون لباسه بالشكل الذي يُسعِد مَن يراه، ويرتاح إليه الآخرون.

وهنا لا ننسى وصية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:-

﴿اعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّيْنِ، أَوْ نَظِيرٌ لَكَ فِي الخَلْقِ﴾

يعني: إمَّا أُخوَّة على أساس دين سماوي، وإمَّا على أساس إنساني.

كذلك هناك قول للإمام أمير المؤمنين عليه السلام:-

﴿لِيَتَزَيَّنْ أَحَدُكُمْ لأَخِيهِ اَلْمُسْلِمِ إِذَا أَتَاهُ كَمَا يَتَزَيَّنُ لِلْغَرِيبِ اَلَّذِي يُحِبُّ أَنْ يَرَاهُ فِي أَحْسَنِ هَيْئَةٍ﴾

كلُّ ذلك، لا يعني: مسألة شخصية، ولا مسألة تكريس ذات،

ولا مسألة نفعية، ولكن تأكيد على: ضرورة تجميع ما يمكن تجميعه، لحَمَلة الرسالة في إيصالها للآخرين.

ولهذا نرى، أنَّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حِرصاً منه على: أنَّ الإنسان لابدَّ أن يستجمع قابلياته وقدراته ويُوظِّفها للآخرين، لمجتمعه، لأهله، لشعبه، لرسالته الإيمانية الوطنية، ولا يكون ذلك إلاَّ باختلاطه مع الآخرين، فلابدَّ أن يكون بمظهر مُحبَّب لهم، يقول ضمن هذا المعنى:-

﴿إِنَّ أَحْسَنَ الزِّيِّ مَا خَلَطَكَ بِالنَّاسِ، وَجَمَّلَكَ بَيْنَهُمْ﴾

المرحلة الأولى: يقبلونك.

المرحلة الثانية: أن يروك جميلاً بزيِّك، بملبسك النظيف المرتَّب.

أقل نتيجة هي: كفُّ ألسنتهم عنك، هذا أدنى شيء.. ويمكن أن تكون إيجابيات كثيرة، بالاستجابة إلى رسالتك الوطنية الإنسانية الإيمانية.

كلُّ ذلك، من أجل أن نَصِل في واقعنا، كأبناء شعب واحد ووطن واحد.. أن نَصِل إلى الوطنية العملية، وأن نحرص على تطبيقها عملياً على أرض الواقع، وبذلك نرتقي بشعبنا ووطننا إلى درجة من التقدُّم والرُّقِيِّ والازدهار، تليق بالمنزلة الحضارية والتاريخية والثقافية الخاصة بهما.. والله تعالى وليُّ التوفيق.

الفصل الثاني

المبحث الثالث

مبحث تفسيري

مبحث تفسيري

الرحمةُ واللِّين والعفوُ مفاهيم قرآنية مترابطة تسير بالإنسان باتِّجاه بناء أفضل العلاقات الاجتماعية، ولتفصيل تلك المقاصد القرآنية، استشهدنا بالآية الكريمة (١٥٩) من سورة آل عمران المباركة، ولتفصيل تلك المقاصد الإيمانية القرآنية رجعنا إلى تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج٣١/ص٣١٥ وما بعدها، فذكرنا ما يلي:

((﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

بيان لعِظَم حِلم النَّبيِّ ﷺ ورحمة الله به وبهم، بعد ما كانت منهم من مخالفة أمر الرسول وفرارهم، كما سبق بيانه.

أي: فبسبب رحمةٍ واسعةٍ من الله -بك وبهم- وفَّقك الله للصَّفْح عنهم، فَلِنْتَ لهم ورَفقْتَ بهم، ولم تغلُظْ عليهم في المَلام مع أنَّهم فعلوا ما يقتضي أشدَّ التعنيف، إذ ترك أكثر الرُّماة أماكنهم فوق الجبل، واشتغلوا بجَمْع الغنيمة، فمكَّنوا المشركين من صعوده مكانهم، وقَلْب ميزان المعركة لصالحهم، وتَرتَّبَ عليه أن أكثر الجيش فَرَّ، وتُرِكَ الرسولُ في قِلَّةٍ من أصحابه، فناله من أذى

المشركين ما ناله، حتى أَرْجَفوا بقتله، فكان لِينُ الرسول معهم -بعد ذلك- رحمة من رحمات الله به وبهم، إذ كان سبباً في بقاء الإسلام، وجمع قلوب المسلمين.. ولذا قال (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى):

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾:

أي: ولو كنتَ جافيَ الطبع، قاسيَ القلب، فعاملْتَهم بقسوة، وعنَّفْتَهم على ما كان منهم، وأَشَحْتَ عنهم غضباً عليهم، لَنَفَرَتْ قلوبُهم منك، فتفرَّقوا عنك، ولم تستطعْ أداء رسالتك، وتبليغ دعوتك على وجهها الأكمل.

فَلِينُهُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) معهم، على خطئهم وعفوه عنهم لم يكن عن ضعف، وإنَّما كان ناشئاً عن الرحمة التي فَطَرَهُ الله عليها.

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾:

أي: اعْفُ عنهم فيما يتعلَّق بحقِّك، واستغفرْ لهم فيما يتعلَّق بحقِّ الله.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾:

أي: في أمر الحرب وغيره من كلِّ أمرٍ له خطر ولم ينزل في شأنه وحيٌ، استظهاراً برأيهم، وتطييباً لنفوسهم، ورفعاً لأقدارهم، وتقريراً لِسُنَّة التَّشاور في الأُمَّة الإسلامية.

وقد ذكروا أنَّه: قد عَلِم الله أنَّه ما به حاجة، ولكنَّه أراد أن يُسْتَنَّ به من بعده.

وقيل: كانت العرب، إذا لم يشاوَروا في الأمر، شَـقَّ علـيهم ذلك، فأمر رسـول الله ﷺ بمشـاورة أصحابه، لئلاَّ يثقُلَ علـيهم استقلاله بالرأي دونهم.. وكان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، يُدرِك -تمام الإدراك- ما للمشاورة من أَثَرٍ في الوصول إلى الصواب.

وفي ذلك يقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ):-

﴿مَا تَشَاوَرَ قَوْمٌ قَطُّ إِلاَّ هُدُوا لأَرْشَدِ أَمْرِهِمْ﴾

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾:

أي : فإذا استقرَّ رأيُك، وسكَنَتْ نفسُك -بعد المشاور- فأَمْضِ الأمر ولا تتردَّدْ، وتوكَّلْ على الله في تنفيذ ما عزمتَ عليه فإنَّه هو المُعين لك في أمور الدين والدنيا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾: عليه في جميـع أمـورهم وإنَّمـا يُحبُّهم، لأنَّهم أخلصوا نفوسهم له، وطردوا عنها ما سـواه، إذ لـم يروا في غيره غَنَاء.)) (انتهى).

إنَّ الأخلاق الفاضلة التي يجب أن يتحلَّى بها الإنسان المؤمن، الإنسان الناضج، الإنسان المتفاعل مع الآخرين، الإنسان الذي يريد أن يُعمِّر ويبنيَ الحياة، إضافة إلـى صـفات التسـاهل والتسـامح والسلام هي خارطة طريق يرسمها القرآن الكريم للإنسان المؤمن، ليكون مُؤثِّراً في المجتمع، ولتأكـيد ذلك جاءت الآية الكريمة (٦٣) من سورة الفُرقان، وقد تطرَّقنا لتفسيرها فـي تفسـيرنا: (البيـان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج١٠/ص٢٠، وما بعدها:

((﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾: من العبودية التي هي إظهار التذلُّل والخضوع، مع القيام بمقتضياتها: من حُسْن الطاعة وجميل الانقياد والامتثال، والتعبير عن المؤمنين الصادقين بلفظ: (عباد)، وإضافتهم إلى الرحمن، فيه تقدير لإيمانهم، وحُسْن أعمالهم وتشريف لهم، وتَبْكيت للمشركين الذين أنكروا اسْم الرحمن، وأعرضوا عن السجود له.

قال ابن عاشور: (فَبِمُناسَبَةِ ذِكْرِ مَن أرادَ أنْ يَذَّكَّرَ، تُخُلِّصَ إلى خِصالِ المُؤْمِنِينَ أتْباعِ النَّبِيِّ ﷺ حَتّى تَسْتَكْمِلَ السُّورَةُ أغْراضَ التَّنْوِيهِ بِالقُرْآنِ ومَن جاءَ بِهِ ومَنِ اتَّبَعُوهُ كَما أشَرْنا إلَيْهِ في الإلْمامِ بِأهَمِّ أغْراضِها في طالِعَةِ تَفْسِيرِها، وهَذا مِن أبْدَعِ التَّخَلُّصِ، إذْ كانَ مُفاجِئاً لِلسّامِعِ مُطْمِعاً، أنَّهُ اسْتِطْرادٌ عارِضٌ كَسَوابِقِهِ حَتّى يُفاجِئَهُ ما يُؤْذِنُ بِالخِتامِ وهو: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ﴾[١])[٢]

وقوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾: معناه يسيرون في تقلُّبهم لتحصيل معايشهم، والسعي في حاجاتهم سيراً هيّناً ليّناً لا بَغْي فيه ولا استعلاء، فكلمة هوناً مصدر وقع وصفاً لموصوف محذوف.

---

[١] سورة الفرقان/آية/٧٧.

[٢] التحرير والتنوير/ج١٩/ص٦٧.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾: معناه إذا تكلَّم معهم السُّفهاءُ بالسوء أو بكلام يُؤذيهم ويكرهون سَمَاعه أَعرضوا عنهم تحلُّماً وسَمَاحةً، وقالوا ردَّاً عليهم تسلُّماً منكم ومتاركةً لكم، فليس معنى: ﴿سَلَامًا﴾: السلام المعروف، لأنَّ الآية في مشركي مكَّة فلا سلامَ عليهم، والذي يظهر من الأسلوب أنَّ المفهوم من قولهم ﴿سَلَامًا﴾: هو سَداد الرَّدِّ مع البُعد عن التفحُّش ومُجاراة السفهاء.)) (انتهى).

إنَّ اللهﷻ خَلَق الإنسان وجعل في ذاته مجموعة من القِيَم والضوابط تُنير له الطريق في الحياة الدنيا، وأطلق القرآن الكريم على تلك القِيَم والضوابط اسْم: (الفِطرة).

ومن أجل التَّوسُّع لفهم مقاصد الآية الكريمة (٣٠) من سورة الروم المباركة، وجدنا من المفيد الرجوع إلى تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج٢٦/ص١٤٦، وما بعدها للوقوف على أهداف تلك الآية المباركة:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

بعد أن بيَّن اللهُ آيات ربوبيته وضرب مثلاً لفساد الإشراك جاء بهذه الآية لإقرار ما تقدَّم من وجوب التوحيد، وحثّ كلّ مُكلَّف على الإقبال على دين التوحيد الذي هو دين الفِطرة التي فَطَر الناس عليها.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾: لكلِّ فردٍ مُكلَّفٍ من الأُمَّة المُحمَّدية في شخص نبيِّها مُحمَّدﷺ فهو إمامها، أو خطاب لكلِّ مُكلَّف مباشرة.

والوجه في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾: إمَّا أن يُرَاد به معناه المعروف، وإمَّا أن يُرَاد به الذات كلّها، وسواء أكان المراد به هذا أم ذاك، فالآية تمثيل لوجوب الإقبال على دين الإسلام والاستقامة والثبات عليه والاهتمام به ولذلك عقبه بقوله: ﴿حَنِيفَاً﴾: أي مائلاً عن الأديان كلِّها مُتَّجِهاً إليه ومُقبِلاً عليه، أو دين إبراهيم الحنيفعليه السلام يعني: أنَّ التوحيد هو دين إبراهيم الحنيف.

وهذا الدين الإسلامي الذي أمرنا الله بالاستقامة عليه، هو فِطرة الله وخِلْقته التي فَطَر الناس وخَلَقَهم عليها.

ومن العلماء مَن فَسَّر الفِطرة بأنَّها قابلية الحقِّ والتهيُّؤ لإدراكه، فالناس جميعاً مفطورون ومخلوقون مستعدِّين لقبوله، لا يمنعهم عنه إلاَّ المبطلون من شياطين الإنس والجنِّ، والتفسيران متقارِبان، والفِطرة في كِليهما: اسْم هَيْئَةٍ من الفَطْر، بمعنى الخَلْق والاختراع.

حول الفِطرة الإلهية

نُورِد هنا بحثاً للسَّيِّد الطباطبائي لأهمِّيَّته، وقد كتبه في تفسيره المشهور تحت عنوان:

(كلام في معنى كون الدين فِطرياً، في فصول):

١-إذا تأمَّلنا هــذه الأنواع الموجودة التي تتكــوَّن وتتكــامل تدريجا ســواء كانت ذوات حياة وشعور كــأنواع الحيوان أو ذات حياة فقط كــأنواع النبات أو ميِّتة غير ذي حياة كســائر الأنواع الطبيعية -على ما يظهر لنا- وجدنا كلَّ نوع منها يسير في وجوده سيراً تكوينياً مُعيَّناً ذا مراحل مختلفة بعضها قبل بعض وبعضها بعد بعض يَرِد النوع في كلٍّ منها بعد المرور بالبعض الذي قبله وقبل الوصــول إلى ما بعده ولا يزال يســتكمل بِطَيِّ هذه المنازل حتــى ينتهيَ إلى آخرها وهو نهاية كماله.

نجد هذه المراتب المَطوية بحركة النوع يُلازم كلٌّ منها مقامه الخاصّ به لا يســتقدم ولا يستأخر من لدُنْ حركة النوع في وجوده إلى أن تنتهيَ إلى كــماله فبينها رابطة تكــوينية يربط بها بعض المراتب ببعض بحيث لا يتجافى ولا ينتقل إلى غير مكانه، ومن هنا يُســتنتَج أنَّ للنوع غاية تكوينية يتوجَّه إليها من أول وجوده حتى يبلغها.

فالجوزة الواحدة مثلاً إذا استقرَّت في الأرض استقراراً يُهيِّئُها للنمــوِّ على اجتماع ممَّا يتوقَّــف عليه النُّمو من العِلل والشــرائط كــالرطوبة والحرارة وغيرهما أَخَذ لُبُّــها في النُّموِّ وشَقّ القِشْــر وشَرَعَ في ازدياد من أقطار جسمه، ولم يَزَلْ يزيد وينمو حتى يصل إلى حدٍّ يعود فيه شــجرة قوية خضراء مُثمِرة ولا يختلف حاله في مسيره هذا التكويني وهو في أول وجوده قاصداً قَصْداً تكوينياً إلى

غايته التكوينية التي هي مَرتبَة الشجرة الكاملة المُثمِرة.

وكذا الواحد من نوع الحيوان كالواحدة من الضأن مثلاً لا نشكُّ في أنَّها في أول تكوُّنها جنيناً متوجِّهةً إلى غايتها النوعية التي هي مرتبة الضأنة الكاملة التي لها خواصُّها فلا تضلُّ عن سبيلها التكوينية الخاصَّة بها إلى سبيلٍ غيرها ولا تنسى غايتَها يوماً، فتسير إلى غير غايتها، كغايةِ الفيلة مثلاً أو غاية شجرة الجوز مثلاً، فكلُّ نوع من الأنواع التكوينية له مسير خاصٌّ في استكمال الوجود ذو مراتب خاصَّة مُترتِّبة بعضها على بعض تنتهي إلى مرتبة هي غاية النوع ذاتاً يطلبها طلباً تكوينياً بحركته التكوينية والنوع في وجوده مُجهَّز بما هو وسيلة حركته وبلوغه إلى غايته.

وهذا التوجُّه التكويني لاستناده إلى الله يُسمَّى هِداية عامَّة إلهية وهي كما عرفتَ لا تضلُّ ولا تُخطِئ في تسيير كلِّ نوعٍ مسيره التكويني وسَوْقه إلى غايته الوجودية بالاستكمال التدريجي وبإعمال قُواه وأدواته التي جُهِّز بها لتسهيل مسيره إلى غايته، قال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[١]، وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى*وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى*وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى*فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾[٢]

٢-نوع الإنسان غير مستثنى من كُلِّيَّة الحُكم المذكور، أعني شمول الهداية العامَّة له، فنحن نعلم أنَّ النُّطفة الإنسانية من حين

---

[١] سورة طه/آية/٥٠.

[٢] سورة الأعلى/آية/(٢-٥).

تَشْـرَع في التكوُّن مُتوجِّهة إلى مرتبة إنسـان تامٍّ كـاملٍ له آثاره وخواصُّه قد قطع في مسيره مراحل الجنينية والطفولية والمراهقة والشباب والكهولة والشيب.

غير أنَّ الإنسـان يُفارِق سـائر الأنواع الحيوانية والنباتيـة وغيرها فيما نعلم في أمر وهو أنَّه لِسَعَة حاجته التكوينية وكَثرة نواقصـه الوجودية لا يقدر علـى تتميم نواقصه الوجودية ورَفْـع حوائجه الحيوية وحده.

بمعنى: أنَّ الواحد من الإنسان لا تتمُّ له حياته الإنسانية وهو وحده، بل يحتاج إلى اجتماع منزلي ثم اجتماع مَدَني يجتمع فيه مع غيره بالازدواج والتعاون والتعاضُد، فيسعى الكـلُّ بجميع قُواهم التي جُهِّزوا بها للكُـلِّ ثم يقسـم الحاصل من عملهم بين الكـلِّ فيذهب كلٌّ بنصيبه على قدر زِنَتِه الاجتماعية.

وقد عرفتَ في سابق مباحث هذا الكتاب أنَّ المَدَنية ليست بطبيعية للإنسان، بمعنى أن ينبعثَ إليه من ناحية طبيعته الإنسانية ابتداءً، بل له طبيعة مُستخدَمة لغيره، لنفع نفسه ما وجد إليه سبيلاً فهو يستخدم الأمور الطبيعية ثم أقسام النبات والحيوان في سـبيل مقاصـده الحيوية، فهو باسـتخدام فرد مثله أو أفراد أمثاله أجرأ، لكنَّه يجد سـائر الأفراد أمثاله في الأميال والمقاصد وفي الجهازات والقُـوى فيُضطرُّ إلى المُسـالمة وأن يُسلِّم لهم حقوقاً مثل ما يراه لنفسه.

وينتهي هذا التضارب بين المنافع أن يشارك البعضُ البعضَ في العمل التعاوني ثم يُقسَم الحاصل من الأعمال بين الجميع ويُعطى منه لكلِّ مَن يستحقُّه.

وكيف كان فالمجتمع الإنساني لا يتمُّ انعقاده ولا يَعمُر إلاَّ بأصول علمية وقوانين اجتماعية يحترمها الكلُّ، وحافظٌ يحفظها من الضيعة ويُجرِيها في المجتمع وعند ذلك تطيب لهم العيشة وتشرف عليهم السعادة.

أمَّا الأصول العلمية، فهي معرفته إجمالاً بما عليه نشأة الوجود من الحقيقة وما عليه الإنسان من حيث البداية والنهاية.

فإنَّ المذاهب المختلفة مُؤثِّرة في خصوص السُّنن المعمول بها في المجتمعات.

فالمعتقدون في الإنسان أنَّه ماديٌّ مَحْضٌ ليس له من الحياة إلاَّ الحياة المُعجَّلة المُؤجَّلة بالموت.

والمعتقدون بصانع وراء المادة كالوثنية يبنون سُنَنهم وقوانينهم على إرضاء الآلهة لِيُسعِدوهم في حياتهم الدنيوية.

والمعتقدون بالمبدأ والمَعاد يبنون حياتهم على أساسٍ يُسعِدهم في الحياة الدنيوية ثم في الحياة المُؤبَّدة التي بعد الموت.

فصور الحياة الاجتماعية تختلف باختلاف الأصول الاعتقادية في حقيقة العالَم والإنسان الذي هو جزء من أجزائه.

وأمّا القوانين والسُّنَن الاجتماعية، فلولا وجود قوانين وسُنن

مُشتركة يحترمها المجتمعون جميعهم أو أكثرهم ويتسلَّمونها لَتَفَرَّق الجمع وانحلَّ المجتمع.

وهذه السُّنَن والقوانين قضايا كُلِّيَّة عمليَّة صورها: يجب أن يفعل كـذا عند كذا أو يَحرُم أو يَجوز، وهي أيًّا ما كانت مُعتبَرة في العمل لغايات مصلحة للاجتماع والمجتمع تترتَّب عليها، تُسمَّى مصالح الأعمال ومفاسدها.

٣-قد عرفتَ أنَّ الإنسان إنَّما ينال ما قدر له من كمال وسعادة بعقد مجتمع صالح يحكم فيه سُنَن وقوانين صالحة تضمن بلوغه ونيله سعادته التي تليق به، وهذه السعادة أمر أو أمور كمالية تكوينية تلحق الإنسان الناقص الذي هو أيضاً موجود تكويني فتجعله إنساناً كاملاً في نوعه، تامًّاً في وجوده.

فهذه السُّنَن والقوانين وهي قضايا عملية اعتبارية واقعة بين نقص الإنسان وكماله متوسِّطة كالعبرة بين المنزلتين، وهي كما عرفتَ تابِعة للمصالح التي هي كـمال أو كـمالات إنسانية، وهذه الكمالات أمور حقيقية مُسانِخة ملائمة للنواقص التي هي مصاديق حوائج الإنسان الحقيقية.

فحوائج الإنسـان الحقيقية هي التي وضعت هذه القضايـا العملية واعتبرت هذه النواميـس الاعتبارية، والمراد بالحوائج هي ما تطلبه النفس الإنسـانية بأميالها وعزائمها ويصدقه العقل الذي هو القوَّة الوحيدة التي تُميِّز بين الخير والنافع وبين الشَّرِّ والضَّارِّ

دون ما تطلبه الأهواء النفسانية ممَّا لا يُصدِّقه العقل، فإنَّه كمال حيواني غير إنساني.

فأصول هذه السُّنَن والقوانين يجب أن تكون الحوائج الحقيقة التي هي بحسب الواقع حوائج، لا بحسب تشخيص الأهواء النفسانية.

وقد عرفتَ أنَّ الصنع والإيجاد قد جهَّز كلَّ نوعٍ من الأنواع -ومنها الإنسان- من القُوى والأدوات بما يرتفع بفعاليته وحوائجه ويسلك به سبيل الكمال ومنه يُستنتَج أنَّ للجهازات التكوينية التي جُهِّز بها الإنسان اقتضاءات للقضايا العملية المُسمَّاة بالسُّنن والقوانين التي بالعمل بها يستقرُّ الإنسان في مقر كماله مثل السُّنن والقوانين الراجعة إلى التَّغذِّي المعتبرة بما أنَّ الإنسان مُجهَّز بجهاز التغذِّي والراجعة إلى النكاح بما أنَّ الإنسان مُجهَّز بجهاز التوالد والتناسل.

فتبيَّن أنَّ من الواجب أن يتَّخذ الدين -أي الأصول العلمية والسُّنَن والقوانين العملية التي تضمن باتِّخاذها والعمل بها سعادة الإنسان الحقيقية- من اقتضاءات الخِلقة الإنسانية وينطبق التشريع على الفِطرة والتكوين، وهذا هو المراد بكون الدين فِطرياً وهو قوله تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[1].

---

[1] سورة الروم/آية/٣٠.

٤-قد عرفتَ معنى كون الدين فِطرياً، فالإسلام يُسمَّى دين الفِطرة لَمَّا أنَّ الفِطرة الإنسانية تقتضيه وتهدي إليه.

ويُسمَّى إسلاماً لَمَّا أنَّ فيه تسليم العبد لإرادة الله سبحانه منه، ومِصداق الإرادة، وهي صفة الفعل تجمع العِلل المؤلَّفة من خصوص خِلقة الإنسان وما يحتفُّ به من مقتضيات الكون العام على اقتضاء الفعل أو الترك قال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾[١]

ويُسمَّى دين الله لأنَّه الذي يريده الله من عباده من فعلٍ أو ترك، بما مرَّ من معنى الإرادة.

ويُسمَّى سبيل الله لَمَّا أنَّه السبيل التي أرادها الله أن يسلكَها الإنسان لتنتهيَ به إلى كماله وسعادته، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا**....﴾[٢]

وأمَّا أنَّ الدينَ الحقَّ يجب أن يُؤخَذ من طريق الوحي والنُّبوَّة ولا يكفي فيه العقل، فقد تقدَّم بيانه في مباحث النُّبوَّة وغيرها من مباحث الكتاب)[٣].

وأمَّا قوله سبحانه: ﴿**لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**﴾[٤]: فهو خبر مُرادٌ منه النهي، أي: لا تُبدِّلوا دين الله وخِلقته التي خَلَق الناس عليها

---

[١] سورة آل عمران/آية/١٩.

[٢] سورة الأعراف/آية/٤٥.

[٣] الميزان في تفسير القرآن/ج١٦/ص١٨٩ وما بعدها.

[٤] سورة الروم/آية/٣٠.

بالإصغاء إلى دُعاة الباطل من شياطين الإنس أو الجنِّ.

والمعنى الإجمالي للآيـــة: فأَقبِلْ -أيُّها العاقلُ- على الإســـلام دين الحقِّ واستقمْ عليه واهتمَّ به، مائلاً إليه بجدٍّ وهِمَّةٍ، منصرفاً عن سواه من سائر الأديان فَطَر الله الناس عليه وخَلَقَهم مستعدِّين له، لا تُبدِّلوا فِطرة الله وخِلْقته، ذلك الدِّين المستقيم الذي لا يصحُّ تبديله، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون استقامته، ووجوب الإيمان به، لعدم تدبُّرهم وإهدارهم عقولهم.

إنَّ اللهﷻ هو الذي خلق الإنســـان وهو سُبْحَانَهُ الذي يعـــرف خفايا النفـــس البشـــرية ومقدار طاقتـــها في تحمُّل الواجبـــات، لذا وضَّحت الآيـــة الكريمة (٢٨٦) من سورة البقرة المباركـــة تلك المقاصد.

وللتوضيح أكثر، رجعنا الى تفسيرنا: (البيان والتبيـــان فـــي تفسير وتنزيل القرآن)/ج٢٦/ص٣٦٠، وما بعدها، فقلنا ما يلي:

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾:

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾:

هذه جملة مستأنفة بيَّن فيها اللهﷻ يُسْر التكاليف على عباده، فقد ذكرها سُبْحَانَهُ بعد تلقِّي عبادِه لتكاليفه بالطاعة والقبول.

والمعنى: أنَّه تَعَالَى، جرت سُنَّتُه: ألاَّ يُكلِّف نفساً من النفوس، إلاَّ ما تُطِيقه وتتَّسِع له قدرتها، بل هو في الحقيقة دون وسعها وطاقتها، فالصلاة: كُلِّفنا منها خَمْساً في اليوم والليلة، والطاقة تتَّسِع لأكثر منها.

والصيام: كُلِّفنا منه شهر رمضان، والطاقة البشرية تتَّسِع لأكثر منه، وهكذا.. وإذا كانت سُنَّتُه تَعَالَى ألاَّ يُكلِّفَنا إلاَّ ما نُطيقُه، فإنَّ ذلك يَدلُّ على أنَّه لا يُكلِّف بالمُحَال، فضلاً منه وكَرَماً وحِكمةً ورحمةً.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾:

بعد أن بيَّن اللهﷻ أنَّ تكاليفه دائماً في وُسْعنا، وبقدر طاقتنا، عقَّب ذلك ببيان أنَّ فعلها تعود منفعته على فاعليها، وأنَّ تركها تعود مَضرَّتُه على تاركيها دون غيرهم ترغيباً للمُكلَّفين في المحافظة عليها، وتحذيراً لهم من الإخلال بها، أنَّ للنفس ثواب ما كسبت من الطاعات، وعليها عقاب ما اكتسبت من المعاصي.

وعَبَّرَ: بالكَسْب مع الطاعة والاكتساب مع المعصية، من باب التلوين في نمط الكلام، كما في قوله تعالى: **﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾**[1].

﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾:

شُروعٌ في بقية دعوات العباد، بعد أن تخلَّلها بيانٌ: أنَّ الله لا

[1] سورة الطارق/آية/١٧.

يُكلِّفهم إلاَّ بما يُطيقون.

والمعنى: هذا الدعاء من إرشاد الله بعباده، فهو على تقدير الأمر منه سُبْحَانَهُ، أي: قولوا في دعائكم: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾:

وظاهر الآية يُفيد أنَّ مَن ترك واجباً، أو فَعَلَ مُحرَّماً، نسياناً، أو خطأً، أي جهلاً بالحُكم الشرعي يُؤاخَذ عليه، ولهذا يُعلِّمنا اللهﷻ أن ندعوَه ألاَّ يؤاخذنا على ذلك، ولكن هذا يُخالِف قوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ):-

﴿إِنَّ اللهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِيَ الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ﴾

كما أنَّنا لو أُوخِذنا بما نسينا أو أخطأنا لكُنَّا مُكَلَّفين وقت النسيان أو الخطأ، وذلك لا يصحُّ، لأنَّه تكليف بما ليس في وُسْعِنا، واللهﷻ يقول: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾: والمَخرَج من هذا، أن يُفسَّر النِّسيان: بالتَّرْك عمداً، فهو من مَعانيه اللُّغوية.

ويُفسَّر الخطأ بفِعْل أو تَرك الصواب من الواجبات -أو المنهيات- كسلاً أو غِوايةً، أو انحرافاً، فإنْ فُسِّر بذلك، استقام الدعاء بعدم المؤاخذة عليهما.

ومقتضى هذا: أنَّ الذي يعرف عن نفسه النسيان يجب عليه أن يحتاط بما يُذَكِّرُه، وإلاَّ كان آثماً، وكذا المُخطِئ إذا لم يجتهدْ في تجنُّب الخطأ بسؤال أهل العلم.

﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾:

أي: ربَّنا ولا تحمل علينا عِبئاً ثقيلاً، كما حَمَلْتَه على الذين من قبلنا.

والمقصود منه الذنب الذي ليس له توبة ولا كفارة.

وقيل: هو ما كلَّفه الله بني إسرائيل مِن قَتْل النفس في التوبة، أو في القِصاص، لأنَّه كان لا يجوز غيره في شريعتهم، وقطع موضع النجاسة من الثوب ونحوه، وصرف ربح مال الزكاة، وما إلى ذلك.

﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا﴾:

يُعلِّمنا الله بذلك أن نستعفيَه من العقوبات التي لا تُطاق، بعد أن علَّمنا الاستعفاء ممَّا يُؤدِّي إليها.

ويجوز أن يكون المراد ممَّا لا طاقةَ لنا به مِن المِحَن والبلايا، التي لا نُطيق تحمُّلها، كالأمراض الجسدية والنفسية، والعُسْر بعد اليُسْر، والمشكلات لا نجد لها حلاًّ ونحو ذلك.

﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾:

أي: وامحُ آثارَ ذُنوبنا بتَرك عقوبتنا عليها، واغفِرْ لنا بستر القبيح، وإظهار الجميل، وتعطَّفْ علينا بكرمك وفضلك، رحمة منك.

ولم يأتِ في هذه الجُمَل الثلاث بلفظ: (ربَّنا) لأنَّها نتائج الجُمَل التي تقدَّمت، فجاء: **﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾**، مقابل: **﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا﴾**، وجاءَ **﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾** مقابل: **﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ**

عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾: وجاء **﴿وَارْحَمْنَا﴾** مقابل: **﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾**، إلى آخر ما قال.

﴿أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾:

أي: أنتَ مالكُنا وسيِّدنا ومتولِّي أُمورِنا، وإذ كنتَ مولانا، فانصُرنا على القوم الكافرين الذين يريدون المكروه بنا، فمَن كُنتَ مولاهُ فإنَّه لا يُضام.

وقال أمير المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام:-

﴿مَا أَظُنُّ أَنَّ أَحَداً عَقَلَ وَأَدْرَكَ الإِسْلاَمَ، يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَهُمَا﴾

وروى عليُّ بن إبراهيم القمي في تفسيره رواية بسنده، قال: (حَدَّثَنِي أَبِي عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (عَلَيْهِ السَّلاَمُ):-

﴿أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ مُشَافَهَةٌ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله وسلم لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ قَالَ النَّبِيُّ: انْتَهَيْتُ إِلَى مَحَلِّ سَدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَإِذَا بِوَرَقَةٍ مِنْهَا تُظِلُّ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ فَكُنْتُ مِنْ رَبِّي كَقَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى كَمَا حَكَى اللَّهُ عز وجل فَنَادَانِي رَبِّي (تَبَارَكَ وَتَعَالَى): ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾. فَقُلْتُ: أَنَا مُجِيبٌ عَنِّي وَعَنْ أُمَّتِي: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وكتبه وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

فَقَالَ اللَّهُ: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ

وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

فَقُلْتُ: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

وَقَالَ اللهُ: لاَ أُؤَاخِذُكَ.

فَقُلْتُ: ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾.

فَقَالَ اللهُ: لاَ أَحْمِلُكَ.

فَقُلْتُ: ﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: قَدْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ لَكَ وَلأُمَّتِكَ﴾

فَقَالَ الصَّادِقُ (عَلَيْهِ السَّلاَمُ):-

﴿مَا وَفَدَ إِلَى اللَّهُ تَعَالَى أَحَدٌ أَكْرَمُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَيْثُ سَأَلَ لأُمَّتِهِ هَذِهِ الْخِصَالَ﴾)

اللهﷻ لم يخلق الإنسان إلاَّ وبيَّن في مُحكَم كتابه الكريم أو في أحاديث المعصومين (عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ) ما يجب على الإنسان من التزامات وواجبات، كما أنَّ اللهﷻ فوَّض الإنسان بالتمتُّع والاستيناس بطيِّبات الحياة وفْق شروط حدَّدتها المصادر التشريعية. هذه الموازنة الربَّانية بين الواجبات والحقوق بيَّنها اللهﷻ في عدد من الآيات الكريمة في مُحكَم كتابه الكريم، ومنها الآيتين (٣١) و(٣٢) من سورة الأعراف المباركة.. ومن أجل التعرُّف على تفاصيل أكثر، ننقل القارئ الكريم إلى تفسيرنا: (البيان والتبيان في

تفسير وتنزيل القرآن)/ج٧/ص١٣٢، وما بعدها، حيث ذكرنا ما يلي:

((بعد أن استوفى الناس حظوظهم من زينة الحياة، وصار إلى أيديهم الكثير منها، يدعوهم الله إلى ألاَّ تكون هذه الزينة التي اتَّخذوها حِلىً يتَحلَّون بها في أوقات لَهوِهم، أو في محافلهم وأنديتهم وحسب، وإنَّما الذي ينبغي أن يتزيَّنوا له، ويحتفوا بلقائه قبل كلِّ شيء، هو بيت الله الذي يقفون فيه بين يدي الله، يناجونه ويوجِّهون وجوههم إليه.

فهذا الاحتفاء ببيوت الله، وهذا الإعداد والتجمُّل للقاء الله فيها، هو ممَّا يقيم في كيان المؤمن مشاعر التوقير والإجلال لهذا اللقاء، وممَّا يُهيِّيء كيان الإنسان الداخلي لمناجاة ربِّه، بعد أن تطهَّر وتزيَّن لهذا اللقاء العظيم.

وبعد أن بيَّن الله ﷻ في الآيات السابقة: أنَّه لا يُشرِّع الفواحش، وأنَّه يأمر بالعدل، وهو التوسُّط في الأمور، ويأمرنا بالاتِّجاه إليه وحده في العبادة، وبيَّن أنَّ الناس فريقان يوم القيامة: مهديون طائعون، وضالُّون عاصون، وكلّ بسبب نيِّته وعمله، بعد أن بيَّن هذا عقَّبه، ببيان بعض ما شرَّعه الله وحرَّمه، ومن ذلك أن يقولوا على الله ما لا يعلمون.

ومعنى الآية: يا بَني آدم، تجمَّلوا بزينتكم للصلاة في كُلِّ مُصلَّى، إجلالاً لربِّكم الذي تقفون بين يديه في صلاتكم، فهو

سُبْحَانَهُ أحقُّ بذلك من الملوك والرؤساء، الذين يتجمَّل الناس للوقوف بين أيديهم.

وروى السيِّد هاشم البحراني في تفسيره: عَنْ خَيْثَمَةَ بْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ، قَالَ: كَانَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ لَبِسَ أَجْوَدَ ثِيَابِهِ، فَقِيلَ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، لِمَ تَلْبَسُ أَجْوَدَ ثِيَابِكَ؟... فَقَالَ:

﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، فَأَتَجَمَّلُ لِرَبِّي، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1]، فَأُحِبُّ أَنْ أَلْبَسَ أَجْوَدَ ثِيَابِي﴾[2]

وروى أيضاً، عن محمد بن يعقوب: عن عليِّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبد الله بن المغيرة عن أبي الحَسَن (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، في قول اللهﷻ: **﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾**، قال:-

﴿مِنْ ذَلِكَ التَّمَشُّطُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ﴾[3]

والأمر بذلك للنَّدْب، إذ الواجب ستر العورة بأيِّ ساتر، والزينة شاملة للثياب الجميلة، والتمشُّط والتطيُّب، وغير ذلك، ممَّا وَرَدَ في السُّنَّة المُطهَّرة أو شمله عموم اللفظ، ممَّا لا إسراف فيه.

وقيل: إنَّ معنى **﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾**: البسوا ثيابكم لستر عوراتكم عند كلِّ صلاة أو طواف.. فالمسجد -بمعنى

---

[1] سورة الأعراف/آية/٣١.

[2] البرهان في تفسير القرآن/ج٢/ص٥٣٢.

[3] المصدر السابق/ج٢/ص٥٣٠.

السجود- مَجاز عن الصلاة والطواف، فإنَّ السجود لغةً: الخضوع، وهو شامل للصلاة والطواف.

ولو كان الأمر كذلك، لقيل: خذوا ثيابكم، أو استروا سوءاتكم عند كلِّ مسجد.

وبما أنَّه طلب في الآية أَخْذَ الزينة، فذلك أَمرٌ تَجاوَزَ طلب الستر، إلى ما هو أكمل منه، وهو التجمُّل، فمَن تجمَّل بالثياب فقد ستر عورته وزاد التجمُّل.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا﴾[1]

المعنى: وكلوا واشربوا ما طاب لكم، ولا تُسرِفوا بالتَّعدِّي إلى الحرام، أو بتحريم الحلال، أو الإفراط فيه، إنَّ الله لا يُحبُّ المُسرِفين.

قيل: كان أهل الجاهلية: يُحرِّمون الدَّسَم وما زاد على القُوت الضروري أيام حجِّهم تعظيماً له، فنزلت هذه الآية، لإباحة ذلك، والنهي عن الإسراف.

والظاهر أنَّ الآية قاعدة عامَّة، تتناول الحَجَّ وغيره، نزلت ناهية عن الإفراط والشَّرَه في الطعام والشراب، فإنَّ في ذلك أضراراً كثيرة.

ولعلَّ الغرض أنَّ الله يكره له ذلك، لا أنَّه يُبغِضه فعلاً، فإنَّ الله لا يُبغِض سوى أهل المعاصي.

---

[1] سورة الأعراف/آية/٣١.

وقد أجمع الأطباءُ –قديماً وحديثاً– على أنَّ المعدةَ بيتُ الداء والحِمْيَة رأس الدواء، وأنَّ الدواء قلَّما ينفع مع عدم الحِمْيَة وكثيراً ما اعتمد حكماءُ الهند على حِمْيَة المريض أياماً، فَيَصحُّ جسمه بدون علاج آخر.

وقدر الشبع يختلف باختلاف البلدان، والزمان، والسِّنّ، والأشخاص والأفضل تقليل الطعام، فإنَّ فيه السلامة.

وفي حديث عنوان البصري الطويل عن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام أنَّه قال:–

﴿وَصِيَّتِي لِمُرِيدِي الطَّرِيقِ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَاللهَ أَسْأَلُ أَنْ يُوَفِّقَكَ لاسْتِعْمَالِه، ثَلاَثَةٌ مِنْهَا فِي رِيَاضَةِ النَّفْسِ وَثَلاَثَةٌ مِنْهَا فِي الحِلْمِ، وَثَلاَثَةٌ مِنْهَا فِي العِلْمِ، فَاحْفَظْهَا، وَإِيَّاكَ وَالتَّهَاوُنَ بِهَا﴾

قَالَ عُنْوَانٌ: فَفَرَّغْتُ قَلْبِي لَهُ، فَقَالَ:–

﴿أَمَّا اللَّوَاتِي فِي الرِّيَاضَةِ: فَإِيَّاكَ أَنْ تَأْكُلَ مَا لاَ تَشْتَهِيه، فَإِنَّهُ يُورِثُ الحَمَاقَةَ وَالبَلَهَ، وَلاَ تَأْكُلْ إِلاَّ عِنْدَ الجُوعِ، وَإِذَا أَكَلْتَ فَكُلْ حَلاَلاً وَسَمِّ اللهَ، وَاذْكُرْ حَدِيثَ الرَّسُولِ صلى الله عليه وآله وسلم: مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنِه، فَإِنْ كَانَ وَلاَبُدَّ فَثُلُثٌ لِطَعَامِه وَثُلُثٌ لِشَرَابِه وَثُلُثٌ لِنَفَسِه﴾[1]

وقوله تعالى: **﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾**

أي: لا يرضى الله سبحانه وتعالى عن إسرافهم، ويكرههم من أجله،

[1] بحار الانوار/ج٢/ص٢٢٦.

والجملة تعليل للنهي عن الإسراف.

وقد جمعت هذه الآية وجوه البلاغة وأصول الأحكام، باشتمالها على الأمر والنهي والإباحة والخَبَر، كما جمعت -في نصفها- الحِكمة، وذهب بعض العلماء إلى أنَّ النهي عن الإسراف، يشمل: اللباس أيضاً، وهو رأي عِكرمة وابن عباس أيضاً.

فقد أخرج البخاريُّ في صحيحه، قال: (قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ﴾

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلْ مَا شِئْتَ، وَالبَسْ مَا شِئْتَ، مَا أَخْطَأَتْكَ اثْنَتَانِ: سَرَفٌ، أَوْ مَخِيلَةٌ)[١].

قوله تعالى: **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾**[٢]

دعوة إلى أن يأخذ الناس حظَّهم من طيِّبات الحياة، وأن يذوقوا من نِعَم الله التي وضعها بين أيديهم، ولكن في غير إسراف بل في قصد واعتدال، فإنَّ الإسراف يُفسِد النعمة، ويُفقِدها طعمها الطيِّب، حين يمتلئُ الإنسان منها، ويُلحُّ على جسده بها.

والمعنى: قُلْ يا أيُّها الرسولُ الكريمُ لقومك: مَن حرَّم زينة الله التي خَلَقها لِنَفْع عباده وتجمُّلهم؟!... ومَن حرَّم الطيِّبات من

---

[١] صحيح البخاري، بتحقيق محمد زهير الناصر، ونشر دار طوق النجاة/ج٢/ص١٤٠.

[٢] سورة الأعراف/آية/٣٢.

الرزق؟!...

والطيِّبات من الرزق: ما طاب طعماً وكسْباً.

واسْـتُدِلَّ بهذه الآيـة: على أنَّ الأصل في المطاعم وأنـواع التجمُّلات: الإباحة، لأنَّ الاسـتفهام في (مَنْ) لإنكـار تحريمها على أبلغ وجه، كما استَدلَّ بها مَن قال: بحِلِّ لبس الحرير والخَزِّ للرجال، نظراً لعمومها.

وَرَوَى الْعَيَّاشِيُّ: (بِإِسْنَادِهِ عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ عَمِّهِ عُمَرَ بْنِ عَلِيٍّ عَـنْ أَبِيهِ زَيْـنِ الْعَابِدِينَ عَلِيِّ بْنَ الْحُسَـيْنِ عليه السلام أَنَّهُ كَانَ يَشْتَرِي كِسَاءً بِخَمْسِينَ دِينَاراً فَإِذَا أَصَافَ تَصَدَّقَ بِهِ لاَ يَرَى بِذَلِكَ بَأْساً وَيَقُولُ:-

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾)[1]

وروى المجلسـي أيضـاً: (دَخَلْـتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ (عَلَيْهِ السَّلاَمُ) وَعَلَيْهِ جُبَّةُ خَزٍّ وَطَيْلَسَانُ خَزٍّ فَنَظَرَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، هَذَا خَزٌّ؟!... مَا تَقُولُ فِيهِ؟!... فَقَالَ:-

﴿وَمَا بَأْسٌ بِالْخَزِّ؟...﴾

قُلْتُ: وَسَدَاهُ إِبْرِيسَم؟!... قَالَ:-

﴿لاَ بَأْسَ بِهِ، فَقَدْ أُصِيبَ الْحُسَيْنُ عليه السلام: وَعَلَيْهِ جُبَّةُ خَزٍّ﴾

ثُمَّ قَالَ:-

---

[1] بحار الانوار/ج٦٢/ص١٢٥.

﴿إِنَّ عَبْدَ اللَّه بْنَ عَبَّاسٍ لَمَّا بَعَثَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ عليه السلام إِلَى الْخَوَارِجِ لَبِسَ أَفْضَلَ ثِيَابِهِ وَتَطَيَّبَ بِأَطْيَبِ طِيبِهِ وَرَكِبَ أَفْضَلَ مَرَاكِبِهِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَوَاقَفَهُمْ، فَقَالُوا: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ بَيْنَا أَنْتَ خَيْرُ النَّاسِ إِذَا أَتَيْتَنَا فِي لِبَاسِ الْجَبَابِرَةِ وَمَرَاكِبِهِمْ فَتَلاَ هَذِهِ الآيَةَ: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ إِلَى آخِرِهَا فَالْبَسْ وَتَجَمَّلْ فَإِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ وَيُحِبُّ الْجَمَالَ وَلْيَكُنْ مِنَ الْحَلاَلِ﴾

وفي هذه الآية أيضاً دلالة على أنَّ الأشياء على الإباحة)[1].

والذي ينبغي التعويل عليه: أنَّ إطلاق الإباحة هنا، مُقيَّد بأدلَّة التحريم لبعض ما دخل فيه كَلبس الذهب والحرير للرجال، فقد حُرِّما بالسُّنَّة النَّبويَّة، والتَّجمُّل بالحلال مُستحَبٌّ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

مثل ذلك التفصيل البَيِّن، نفصِّل الآيات لقوم يفهمون فيعملون بما فهموا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2]

قُلْ: أيُّها الرسولُ الكريمُ لقومك: هذه هي المُحرَّمات التي حرَّمها الله على عباده، وكلّها خبائث، تُفسِد الطَّيِّب إذا دخلتْ عليه،

---

[1] بحار الانوار/ج٦٢/ص١٢٥.

[2] سورة الأعراف/آية/٣٣.

والفواحش هنا يُراد بها الزِّنا خاصَّة، وما اتَّصل به من شهوة الفرج.

والإثم: المُحرَّمات التي حَرَّمها الله من مأكولات، والتي تُوقِع مُقترِفها في عِداد الآثمين.

والبغي بغير الحقِّ: العدوان على حدود الله، والتعدِّي على حقوق العباد كالقتل والسرقة، والخيانة للأمانة، وغيرها.

وفي وَصْف البغي ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ -على أنَّ البغيَ لا يكون إلاَّ بغير الحقِّ أبداً- إشارة إلى هذا الوصف الملازم له، وتذكير به، وأنَّه عمل مُجَافٍ للحقِّ خارج عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾: هو ممَّا نهى الله عنه، بل هو أول المنهيَّات، لأنَّ الشرك بالله رأس الكبائر، حيث لا يُقبَل عملٍ من مُشرِك.

وأخَّر النهي عن الشرك هنا، لأنَّ الخطاب في مواجهة المؤمنين الذين دعوا إلى أَخْذ زينتهم عنْد كلِّ مسجد، وإلى عدم التحرُّج من أن ينالوا من طيِّبات ما أخرج الله لعباده من رزق، ثم بيَّن اللهﷻ لهم بعد ذلك ما حرَّمه عليهم بعد أن رفع الحَظْر عن جميع المطعومات، ودعاهم إلى التمتُّع بها، فكان أول هذه المُحرَّمات: الفواحش، وهي شهوة غالبة من الشهوات المُتمكِّنة في الإنسان، والتي كثيراً ما تُفسِد عليه دينه، ثم الإثم والبغي بغير الحقِّ، وهما آفتان من الآفات المُتسلِّطة على الناس في الحياة،

حيث تدفع أهواء النفس وشهواتها بالناس إلى مُقارفة الآثام، وإلى عُدوان بعضهم على بعض لإشباع تلك الشهوات، واسترضاء هذه الأهواء.

ثم الشـــرك بالله والمراد هنا هو ليس الشـــرك الصريح القائم على عبادة غير الله، والإقرار بألوهية إله أو آلهة غيره، فذلك كُفْر بالله لا يُعَـــدُّ صاحبُه في المؤمنين أبداً، وإنَّما المراد بالشـــرك هنا الشـــرك الخفيِّ الذي يتدسَّـــس إلى الإنسان من غير أن يشعر به، وذلك كـــالاستذلال للناس اســـتذلالاً يَقْرُبُ من العبادة، والنظر إليهم نظرة مَن يملكـــون التصرُّف في مُلْك الله، بما صار إلى أيديهم من سلطان أو بَسْطة في المال وَسَعَة في الرزق.

فهذا ونحوه هـــو من قبيل الشـــرك بالله، وإن لم يكن شِـــركاً صـــريحاً، ولهذا وصف الشـــرك هنا بقوله تعالى: ﴿**مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً**﴾: أي هو شرك لا حُجَّة عليه، ولا دليل بين يديه، وإنَّما هو وهم وضلال.

وكـــلُّ شـــرك لا حُجَّة له، ولا دليل عليه، وإنَّما وصف الشرك هنا، هذا الوصف ليُلفِت المؤمنين إليه، ولِيحذروا منه، لأنَّه شـــرك خفيٌّ، والمؤمن حريص على أن يتجنَّب الشـــرك كلَّه، جَلِيَّه وخَفِيَّه، فإذا قيل له: احذَرْ الشرك الذي لا حُجَّة له، جعل يقلب وجوه الأمور التي بين يديه إذ ربَّما يكـــون فيها ما هو من هذا الشـــرك الخفيِّ، وحاول أن يزن هؤلاء الأشخاص الذين استذلَّ لهم، أو استظلَّ بهم،

بميزان الحقِّ والعقل، وهل لهم مع الله ما يملكون به ضرَّاً أو نفعاً، وهنا ينكشف له الأمر، ويرى أنَّ كلَّ شيء لله، وأنَّه ليس لأيِّ مخلوق -مهما بلغ من جاه أو سلطان- سبيل إلى شيء من مُلْك الله .

أمَّا المشركون شِركاً صريحاً، فإنَّهم يجعلون لمَن أشركوا به سُلطاناً، لأنَّهم لا يعرفون الله حقَّ معرفته، ولا يقدرونه حقَّ قدره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾

هو إلفات إلى ما للهﷻ من كمالٍ مُطلَقٍ في صفاته، وأفعاله وأنَّ على المؤمن بالله أن يتعرَّف إلى اللهﷻ وأن يعرفه حقَّ معرفته، فإنَّ من شأن هذا التعرُّف وتلك المعرفة أن يصلاه بالله، وأن يعزلاه عن مَظَانِّ الشِّرك الخَفيِّ به، فلا يجعل لمخلوقٍ مكاناً مع الله في قلبه.

وبهذا الإيمان يُستغنَى بالله ويُستعلَى بوجوده عن الاستذلال أو الاستظلال بأيِّ مخلوق، وإنْ عَظُم قدراً، وعلا في الناس شأناً.

والقول على الله بغير علم هو من قبيل الفهم الخاطئ للهﷻ، ومنهما يجيء الالتفات إلى غيره، والاعتماد على سواه.

قوله تعالى:﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1]

في الآية تأكيد أنَّ الحياة الدنيا فانية، وأنَّ الآخرة واقعة، وأنَّ

[1] سورة الأعراف/آية/٣٤.

لكلِّ أُمَّةٍ أجلٌ ووقتٌ تموت فيه وتُبعَث ثم تقوم للحساب.

والتذكير بالحساب ضرورة لإيقاظ الشعور بالمسؤولية، أنَّ لفت النظر الى أنَّ الإنسان مسؤول مُحاسَب على عمله في وقت لاحق.

فقد مرَّ في الآيات السابقة الحثّ على اتِّخاذ الزينة عند الصلاة اعتناءً بشأنها، كما مرَّ الحثُّ على عدم الإسراف في الأكل والشرب وفي الأمر كلِّه.. وبيَّن لنا سُبْحَانَهُ أنَّه لم يُحرِّم الزينة والطيِّبات من الرزق في حدود الاعتدال.. وذكر أنَّه ما حرم إلاَّ الإثم والبغي والإشراك بالله تعالى، وأن يقول أحد عنه (عَزَّ وَجَلَّ) ما لا يَعْلَمُ.

وجاءت هذه الآية، لِتُبيِّن: أنَّ مصير الناس إلى الموت، لكي يحذروا حساب الآخرة فيما أحلَّ الله لهم وما حرَّم.

خلاصة الفصل الثاني

١-من أروع المفاهيم الإنسانية النبيلة التي أكَّدت عليها الرسالات السماوية المقدَّسة مفهوم (الرِّفق) والإسلام المجيد تَوسَّع في إغناء هذا المفهوم الإنساني بشكلٍ واضح، فبالإضافة لاهتمام القرآن الكريم بهذا المفهوم، اهتمَّت كذلك الأحاديث النَّبويَّة الشريفة به لكي تُعلِّم الإنسان منهج الرِّفْق بالآخرين، ليس الإنسان فحسْب، وإنَّما الرِّفْق بالحيوان وبقية موجودات الكون، فقد وَرَدَ في حديث الإمام الباقر (عَلَيْهِ السَّلَامُ):-

﴿إنَّ لِكُلِّ شَيءٍ قُفْلاً، وقُفلُ الإيْمَانِ الرِّفقُ﴾

٢-مثلما مطلوب من الإنسان أن يترفَّق في معاملاته وعلاقاته مع الآخرين، عليه أن يترفَّق بنفسه وهو يُؤدِّي واجباته العبادية مع الخالقﷻ، فعكس حالة الرِّفق بالنفس لمواجهة حالة الغلوِّ والتَّشدُّد وهذا ما يُنكِره الدين الاسلامي الحنيف.

٣-لقد أكَّدت تعاليم الدين الإسلامي الحنيف على ضرورة رِفْق الإنسان بأخيه الإنسان وإن اختلف معه في العقيدة والقومية واللون والجنس، فالإسلام وكذلك الديانات السماوية المُقدَّسة تُؤكِّد على ضرورة التعامل بالرِّفْق والرحمة، لأنَّ هذا التعامل الصحيح يُولِّد

حالة من التآلف والمَودَّة بين الإنسان وأخيه الإنسان من العلاقات الفردية وصعوداً إلى العلاقات الجماعية ثم الأوسع فالأوسع، وبذلك تتحقَّق حالة الاحترام والتراحُم بين الجميع.

٤-من أجل تعميق الوشائج الإنسانية والعلاقات الاجتماعية أكَّدت التعاليم الإسلامية وكذلك تعاليم بقية الديانات السماوية على مبدأ التراحم بين الإنسان وأخيه الإنسان، فعن طريق الرِّفق والتراحم بين الناس تزدهر الحياة وتتطوَّر وترتقي بصورة مُطَّرِدَة وهذا من مصاديق الوطنية العملية.

٥-لا يكون تغيير الواقع وانتقاله نحو الأفضل عن طريق الانتقالات الحادَّة والمفاجئة وإنَّما تكون عن طريق تطبيق المبادئ والأفكار الناضجة بشكل أقناعي سَلِس يُحقِّق التفاعل الطبيعي المتدرِّج في التعامل مع الأضداد والمُعوِّقات، إضافة إلى كون هذا العمل عملاً جماعياً أطلقنا عليه مصطلح (الشراكة الوطنية الإنسانية).

٦-توجد في الواقع الكثير من الأُسُس والمشتركات التي تُنمِّي مفاهيم (الوطنية العملية وممارسة الوطنية) على أرض الواقع لكن هذه المفاهيم والقِيَم والأفكار تكون غائبة عن الواقع وحبيسة النسيان، لأنَّ أفراد المجتمع تركوا التعامل بها وانشغلوا بغيرها من القِيَم والأفكار، وعندما يتمُّ توجيه المجتمع للاهتمام بتلك القِيَم والأفكار وتشجيعه على استثارتها وإظهارها إلى الواقع، فمن

المُؤكَّد ستظهر أفكار جديدة يمكن استثمارها وتوجيهها لخدمة الصالح العام، وهذا ما نقصده من مصطلح (الشراكة الوطنية الإنسانية)، الذي ينتج مراحل تكاملية لعملية التنمية والتطوُّر.

٧-إنَّ علم النفس التجريبي يربط بين مظهر الإنسان الخارجي وبين محتواه الداخلي، فكلَّما كان داخل الإنسان مستقرَّاً ومتوازناً يكون مظهره الخارجي متناسقاً وجميلاً ومرتَّباً والعكس صحيح، فالإنسان ذو المظهر الخارجي غير المُرتَّب وغير المنتظم يُوحِي بأنَّ الحالة النفسية لذلك الإنسان غير مُستقرَّة وغير متوازنة.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مُقَدِّمة	٥
الفصل الأول	٩
المبحث الأول	١١
الحِلْمُ.. عَشِيرَةٌ	١٣
بالتَعَامُل الــمُتَمَيِّز.. نَتَوَحَّد	١٧
المبحث الثاني	٢٥
الاستثمارُ السليمُ.. لِحُسْنِ الخُلُق	٢٧
المبحث الثالث	٤١
سَعَةُ الصَّدْرِ.. سِمَةُ الأَنْبِيَاءِ	٤٣
المبحث الرابع	٥٥
الرَّأْيُ.. كَلِمَةٌ	٥٧
المَبحث الخامس:	٦٧
النَّفْسُ تُزَكَّى.. بِالْمُحَاسَبَةِ	٦٩
المحاسبة.. أول مراتب تزكية النفس:	٧١
حساب ما أبدينا وما أخفينا:	٧٢
سرعة الحساب الإلهي:	٧٥
لقاؤنا بالله.. في الدنيا قبل الآخرة:	٧٨
محاسبة النفس.. فيها حياة الإنسان:	٨٠

صور الحساب في القرآن الكريم:	٨٣
المَبحث السادس:	٨٩
مبحث تفسيري	٩١
الأُسوةُ الحَسَنَة	٩٥
بحثٌ في معنى الحكمة	٩٦
أَجمَع آيةٍ في كتاب الله	١٠٦
العدل أساس الأمن الاجتماعي	١٠٨
حكم شهادة الزور	١١٠
حكم الشهادة وحفظ العهد	١١١
القضاء بين أهل الكتاب	١١٢
أَجمَع آيةٍ في كتاب الله	١١٦
فَإِنْ عَاقَبْتُــمْ	١١٩
الرأي الــمختار	١٢٧
ذِكْرُ الحديد.. وخصوصيته	١٢٨
أهمُّ الشرائع الإلهية	١٣١
مُحمَّد رسول الله	١٤٤
خلاصة الفصل الأول	١٥١
الفصل الثاني	١٥٧
المبحث الأول	١٥٩
الرِّفْق.. يُؤَدِي الى السِّلْم	١٦١
المبحث الثاني	١٧١
لِلْزِّينَة.. مَعَانٍ	١٧٣
المبحث الثالث	١٨٥

مبحث تفسيري	١٨٧
حول الفِطرة الإلهية	١٩٢
خلاصة الفصل الثاني	٢١٧
الفهرس	٢٢٠

سلسلة كتب ومؤلَّفات سماحة المَرجِع الديني آية الله الفقيه السيِّد حُسين الصدر (دام ظلُّه)، فيما يخصُّ مفاهيم السلام والتعايُش السِّلمي والمواطَنة الصالحة في إطار العراق الواحد المُوحَّد.